رواية للناشئة

لا تدع سلّة الخبز فارغة

تأليف
سلوى شلّة





لا تدع سلّة الخبز فارغة

سلوى شلة





لا تدع سلّة الخبز فارغة

تأليف : سلوى شلة

القياس: 14×20 سم

عدد الصفحات :110ص

ISBN

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٢ م



من إصدارات مؤسسة السبيل
www.al-sabeel.net



طباعة ونشر و توزيع

إصدارات مركز التفكير الحر





+966 505284259
freethinking@windowslive.com

الفصل الأول

- أمّي لقد ولدت الأرنب. ثمانيةَ أرانب صغار دفعة واحدة، لا أكاد أصدّق! كيف لثمانية أرانب أن تخرج كلّها من بطن واحد صغير؟

بعضها بيضاء، وأخرى ملونة بالبني والرمادي، تحركت جميعها نحو بطن أمّها وبدأت ترضع وكأنّها تعلّمت ذلك منذ زمن، ياه لو رأيتها معي! أحدهم يرضع وقد ركب فوق أخيه دون حرج وكأنّ هذا مكانه الطّبيعي، وآخر يرضع رافعًا قدميه للأعلى، وواحد تلقّى ركلة قويّة في منتصف وجهه ليجد نفسه خارج المجموعة، ولم تسعفه قوّته ليصل لثدي أمّه مرّة أخرى، منظره مضحك جدّاً.

- خبر جميل، الحمد للّه.

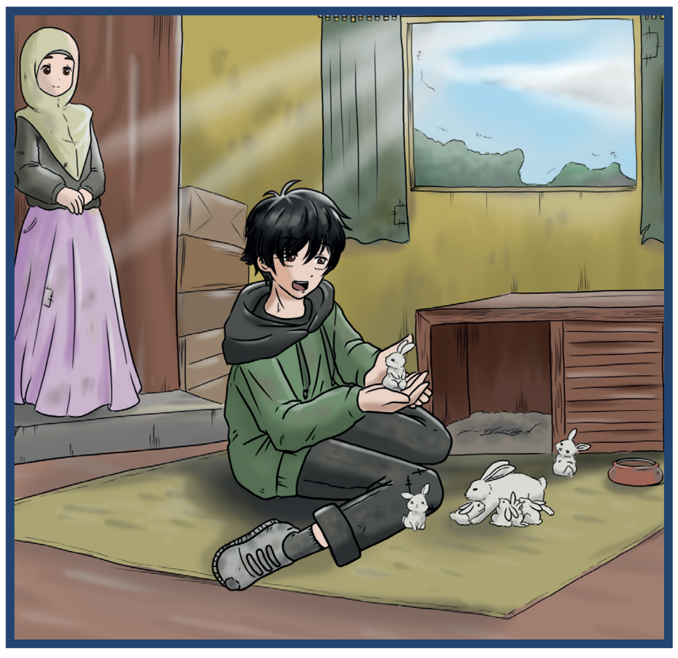
هذه المرّة الأولى الّتي نربّي فيها أرانب، يبدو أنّك مستمتع بها!

- مستمتع جدًا
- يمكن لأنثى الأرنب أن تلد عدّة مرّات في السّنة، أتعلم هذا؟
- وفي كلّ مرة تُنجب ثمانية أرانب!؟
- ربّما أكثر قليلًا أو أقلّ.
- إن كان هذا ما يحدث فأنا أنتظر ثروة ضخمة بلا شكّ.

لن تأكلوا منها أيّ أرنب أبدًا، سنتركها تكبر لتتكاثر كلّها ويزداد عددها، وسأعمل تاجرًا في سوق البلدة أبيع الأرانب وأحصل على المال.

ياه!! هل يمكن أن أصبح ثريّاً بهذه السّهولة يا أمّي؟!

- ولم لا!؟



- وبعد أن تزدهر تجارتي سأشتري هاتفًا محمولًا حديثًا، لن أعاني من كون أغلب الألعاب الجديدة لا تقبل التّحميل في هاتفي الخَرِف هذا، لن ألتصق بمقبس الكهرباء وكأنّني جزء من الحائط، لأحافظ على هاتفي مشحونًا لأستمرّ باللّعب، هذا الهاتف سيصيبني بالجنون! إضافة إلى ذلك لن أضطرّ للذّهاب لمركز التّسوّق الرّئيسي في البلدة للحصول على شبكة إنترنت مجانيّة، بل سيكون معي خطّ الإنترنت الخاصّ بي، وسيتجمّع حولي الأصدقاء بعد أن يروا فخامة ملابسي، طبعًا.. فأنا سأشتريها من أكثر مراكز التسوق شهرة على الإطلاق.

- سأكون سعيدة جدًا أنا أيضًا، فلن أشعر بالضيق والضجر نتيجة لتذمّرك المستمر إن تحقّقت أحلامك!

- هل تعلمين يا أمّي؟ لا بد أن يكون الهاتف المحمول الذي سأشتريه يحتوي على عدسة تصوير ذات دقّة عالية، لأنّني سأفتتح قناة يوتيوب كغيري من الشّباب، أبثّ فيها ساعات من اللّعب الذي لا يتوقّف، وسأحصل على مردود عالٍ جدًّا عندما أصبح مشهورًا، كم ستشعرين بالفخر بابنك والشّباب قد تجمهروا حوله يريدون صورة معه، وهو يسمح لهم مرّة ويتعالى عليهم مرّات! ستختفي أغلب مظاهر البؤس من حياتي، وسأكون سعيدًا بلا شكّ.

بعد أن تتكاثر الأرانب لسنوات طويلة سأصبح تاجرًا كبيرًا وأبني بيتًا أعلى التلّ كبيت كبير التّجار، ذاك الرجل النبيل الذي ساعد الخالة ازدهار في محنتها قبل سفرها لتكساس، سأكون غنيًّا وكريمًا وسعيدًا مثله طبعًا.

أمّي، هل يمكن لكل ذلك أن يحدث إن تكاثرت كل تلك الأرانب؟

- يمكن ذلك، إن لم تكن أغلبها ذكورًا، يبدو أنك لم تفكّر بذلك!

- أمي دعيني أفرح لوقت أطول دون أن يخطر ببالي هذا الاحتمال، يا لبؤس حظّي إن كان أكثرها ذكورًا!

- تابع تخيّلاتك كما تريد أيّها المتفائل.

في الوقت الّذي كان فيه عمر يرسم أحلام الثّراء، كانت الصّيحات تتعالى في أقرب بلدة مجاورة:
"احذروا، لقد فاض النهر، تحطّم السّدّ، هيّا فليهرب الجميع"

تحطّم السّدّ الكبير الذي كان يحتجز خلفه بحيرة كبيرة أوّل الوادي، تلك البحيرة التي كانت يومًا شريان حياة للبلدات الصّغيرة التي قامت حولها.

تدمّرت كل البلدات واحدة تلو أخرى، وها هي في طريقها لعائلة عمر في بلدة اللّوز، هذه العائلة التي كانت تعيش لحظاتها الأخيرة في بيتها دون أن تُدرك ذلك.

- هل تعلمين يا أمّي، حين أصبح ثريّاً سأنتقم من كل أولئك الطّلاب الذين سخروا مرارًا من مظاهر الفقر التي لا تفارقني، لن أعطيهم قرشًا واحدًا مهما توسّلوا أمامي، سأنتقم من كل شخص عاملني بدونيّة لأنّني فقير فقط.

- لا أظنّ أن هذا تصرّفاً صائباً !

- هل أَحضَرَ لي أبي ملابس جديدة كما وعدني؟ كرهت نفسي وأنا أسمع التعليقات الساخرة على ملابسي المهترئة وحذائي المثقوب!

- أبوك يتمنى أن يحضر لك الدّنيا كلّها بين يديك يا عمر، بادله مشاعره الطّيبة بالصّبر والشّكر.

- صبر صبر صبر! أنا أيضًا أحبّ أبي كثيرًا، ولكن إلى متى أصبر؟!

لم يكد عمر يكمل شكواه حتى فزع حين اقتحم أبوه الباب مسرعًا!

- السّيل، فاض النهر، خذا هذا اللوح من الخشب وتمسّكا به جيّدًا.

- ماذا؟ السّيل؟ ماذا عنك يا أبي؟

- لا تقلق سأكون بخير، اهتمّ بوالدتك.

خلال لحظات اقتحم الماء المنزل بقوّةٍ كبيرة فرّقت أسرتهم الصغيرة في جهات عدّة!

- أبي، أمي، أنا خائف جدًّا، أين أنتما؟

- عمر، ولدي تمسّك جيدًا.

انجرف الجميع ليصبحوا كَعُودٍ من القشّ يتقلّب بين الأمواج المتلاطمة بخفّة فلا يستقرّ ولا يهدأ، واختفى الثلاثة بطرفة عين.

انجرفت البيوت والأسواق، واختفى البشر والشجر، وماتت كلّ أشكال الحياة، غطّى الماء أنحاء كثيرة من بلدة اللّوز التي كانت تستقرّ في قلب الوادي الأخضر، فتضفي بيوتها ذات الأسقف القرميدية على المكان جمالًا وروعة، لكن وفي لحظة واحدة، كلّ ذلك صار من الماضي.

سارت أسقف المنازل كسفن ضخمة داخل مجرى السيل، اختلطت السّيارات والأشجار المتكسّرة وأثاث البيوت في مجرى واحد مع البشر، مما زاد من تعداد الضحايا.



وبعد ساعات

- جدّي تعال بسرعة!
- ماذا هناك يا آدم!؟
- وجدت هذا الفتى وقد رماه السّيل على إحدى الصخور قبل أن ينحسر، فحملته على حصاني وأتيت به إلى هنا، لا يزال على قيد الحياة.
- يا رب أكرمنا بإنقاذه، هيا اتّصل بالإسعاف.
- شبكات الاتّصال مقطوعة، وفرق الطوارئ في طريقها إلى البلدة، تأخّرت لانقطاع الطرق بعد أن غطّاها الرّكام، حاول أن تفعل شيئًا يا جدّي، أنقذه أرجوك.
- هيا احمله معي قرب المدفئة، أحضر ملابس جافة وبطانية سميكة، إنه يتجمّد من البرد.
- هيا بسم اللّه.

وبعد ساعات فتح عمر عينيه، نظر حوله ليرى آدم وجدّه بقربه.

- من أنتما؟ وأين أنا؟
- لا تقلق أنت بخير، أنا آدم وهذا جدّي محفوظ.
- أين أبي وأمي؟ هل تعرفان عنهما شيئًا؟

- سنجدهما إن شاء الله لا تخف يا بني.
- شكرًا لك أيها الجدّ الطّيب، اللّهم سلّم أبي وأمّي واجمعني بهما من جديد.
- يمكنك أن تناديني "جدّي" يا بنيّ، لم تُخبرني ما اسمك؟
- أنا عمر

هل تعلمون ماذا حلّ بالبلدة؟

- لقد تهدّمت كامل البلدة يا عمر، لم يبق فيها بيت قائم، والناس بين مشرد ومفقود وغريق، ولولا وجود منزلنا على المرتفع لما نجونا.
- منزلكم فوق التلّ؟ هل أنا في منزل كبير التّجّار؟
- نعم أنت في منزله، مرحبًا بك يا بنيّ.

نظر عمر حوله ليتأمل المنزل الذي كان يراه سابقًا من بعيد، تمامًا كما كان يظنّ، فالأثاث الفخم والفرش الوثيرة تنبئ عن الرّفاهية والغنى لدى هذه الأسرة المحظوظة.

لطالما أثار فضوله ذاك المنزل القابع أعلى التلّ، تميّز بتصميمه وفخامته عن بقية منازل الفلّاحين، كم تساءل مرارًا عن نوع الرّفاهية الّتي يعيشونها، وعن التّرف الذي يستمتعون به ليل نهار، لا يفارق المنزل مخيّلته كلما ضاقت به حياته، وشطّ به الخيال لينسج صورة بيت أحلامه، حيث الحياة -ولا بد- أكثر سعادة وهناء، "نعم، منزل بهذه الفخامة لا يسكنه إلّا السّعداء، ولا مكان فيه للهمّ والحزن والضّيق والحاجة" هكذا كان يظنّ!

- أنت جائع بلا شكّ، دقائق وتحضر لك الخادمة أشهى أنواع الطّعام.

- "خادمة أيضًا! كم أنت محظوظ يا آدم" قالها في سرّه.

لحظات وكان الطّعام بين يديه، لحوم وأرزّ وفاكهة وخضار، وكأنّه في حلم طالما انتظر أن يتحقّق ليهنأ به، لكنه تحقّق في وقت لا يسمح له بالفرح والاستمتاع!

فكيف له أن يستلذّ بطعام وقد شهد كارثة كادت تقتله، كيف له أن يهنأ بترف العيش وقد فقد والديه للتوًّ!

لقد أفقدته مرارة المأساة أي شعور باللّذة والسعادة والهناء.

- شكرًا لكم، أنتم طيّبون جدًّا.

- هيا تناول طعامك ليقوى جسدك من جديد.

وبعد إلحاح مستمر من الجدّ تناول عمر لقيمات ليستعيد عافيته وقوّته، بعد أن تمكن جاهدًا من ضبط نفسه ومنعها من الدّخول في نوبة بكاء تكاد تخنقه.





في تلك الأثناء دخلت الغرفة فتاة في الخامسة من عمرها، جميلة بعينين زرقاوين وخدود كالورد.

- هل عندنا ضيوف؟
- تعالي يا دانة، عندنا صديق جديد اسمه عمر، هيا سلّمي عليه.

مدّت دانة يدها لتصافح عمر، لكنها كانت تحركها باحثة عن يده في عدّة اتّجاهات! لينظر عمر بذهول ويدرك أنها مكفوفة لا ترى، فسارع لمصافحتها وملاطفتها حتى لا تشعر بالإحراج.

- أهلًا دانة، أنا عمر، سعيد برؤيتك.
- أهلًا عمر، هل تعلم؟ عندي مهرة جميلة اسمها شهباء، عمرها سنتان فقط، أحبّها كثيرًا وهي تحبّني أيضًا.
- سأكون سعيدًا إن عرّفتني على مهرتك الصّغيرة، لا بدّ أنّها جميلة مثلك.
- نعم سأُعرّفك عليها، هيا بنا.

مضى يوم الكارثة وحلّ المساء، ولم تصل أيّ أخبار عن والدي عمر.
شعر عمر بأنّه ضيف ثقيل على هذه الأسرة الطيّبة ولم يعرف أين يذهب.

- سأغادر باحثًا عن والديّ، شكرًا لاستضافتكم، لن أنسى معروفكم أبدًا.
- أين تذهب يا فتى، لا مكان تأوي إليه، ابق عندنا حتّى نجد والديك.
- أخشى أن أثقل عليكم، لا بأس سأتدبّر أمري.
- لا لن تثقل علينا أبدًا، والديّ مسافران إلى باريس ولن يعودا إلا بعد أسبوع، ستبقى معي في غرفتي يا عمر، سأكون سعيدًا بهذا.
- لا لن يبقى معك يا آدم، بل سيكون معي في غرفتي، فأنا أحببت عمر وسأشعر بالأنس بوجوده، اهتمّ بأختك يا آدم.
- حسنًا يا جدّي، عمر لك اليوم فقط، وغدًا سيكون معي في غرفتي.
- كم أنت مشاكس يا آدم، هيّا إلى النّوم.

انصرف الجميع للنّوم، وتوجّه عمر إلى غرفة الجدّ المُطلّة على بلدة اللّوز، سمح له نور البدر أن يرى بعض معالم بلدته التي يحبّ، وقد تحوّلت لكومٍ من الركام.

توجّه لفراشه الّذي أعدّه له الجدّ، واستلقى على جانبه وقد ضمّ ركبتيه إلى بطنه منكمشًا على نفسه، وهناك على فراش جميل مريح ووسادة من الرّيش كما كان يشتهي سابقًا، غلبه البكاء حتى أنهكه، تذكّر كلّ اللّحظات السّعيدة التي عاشها مع أمه، ابتسامتها ولطفها ومزاحها الذي لا ينتهي، وتذكّر والده الطّيّب الذي يعمل ليل نهار، وتذكّر تذمّره المستمرّ من فقر أبيه رغم اجتهاده لتقديم الأفضل له، تذكّر بيته المتواضع الذي كان محفوفًا بالحب والرّحمة والبركة، تذكّر الأرانب الصّغيرة وزهور الدّار، ومع كل ذكرى كان يسكب نهرًا من الدّموع بصمت، واستمرّ على هذا الحال حتى غطّ في نوم عميق.

- هيا يا فتى قم صَلِّ الفجر لنتوجّه معًا للمخبز، كفاك نومًا وشخيرًا.
- صباح الخير يا جدّي، وهل تعمل في مخبز؟
- طبعًا، هيا لتستلم وظيفتك من اليوم مع آدم، فالعمل بركة.
- حسناً، لن أتأخّر إن شاء اللّه.

في ملحق خلف المنزل الكبير وجد عمر مخبز الجدّ.

- هيا يا آدم ابدأ العمل فلا دوام مدرسيّ حتى ننتهي من آثار الكارثة، ولا أعلم كيف ستكمل دراسة الصفّ الثالث الإعداديّ أنت وعمر، يبدو أنه في مثل سنّك.

- نعم، أنا أيضًا في الثّالث الإعداديّ.

- هيّا للعمل، فهناك الكثير من المشرّدين المحتاجين للخبز، سنضاعف إنتاجنا، وسنذهب لتوزيع الخبز معًا ونبحث عن والدَيّ عمر.
- وأين عمّال المخبز؟.

- لا عمّال عندي يا عمر، أعمل به قدر استطاعتي في وقت فراغي، ويساعدني آدم ورامي في العطلة الأسبوعيّة.

ما أخبار أخيك رامي يا آدم؟

- رامي وصل تكساس في أمريكا أمس، وسيكمل رحلته ويعود في الأيّام القادمة.

- أصدقاؤه الجدد لا يعجبونني أبدًا، أرجو أن يكفيه اللّه شرّهم.

- نصحته مرارًا بتركهم لكنّه لا يصغي إليّ، ووالدايّ لا يضبطان تصرّفاته بحزم كالمعتاد ويقولان بأنّه أدرى بمصلحته، ويعتبران ما يقوم به حريّة شخصيّة!

لا أعلم كيف لأبي المؤمن الذي يخاف اللّه ويعلم الحلال والحرام أن يسمح لرامي بالسّفر وحده وهو يعلم تهوّره وسوء تصرّفاته!

لا أعلم كيف تسمح له أمّي التي ترى تغيّر طباعه مؤخّرًا بالسّفر مع أصدقاء السّوء!

- أخطأ أبواك في هذا يا آدم، وكنت قد نصحتهما بمنع رامي من السّفر لكن لم يستمعا لنصيحتي، هما في النّهاية بشر، وكلّ ابن آدم خطّاء. هل منّا من لا يخطئ يا بنيّ؟

- تغيّرت طباعه منذ تعرّف على أصدقائه الجدد، تسريحة شعره وذوقه في لباسه، وحتى أفكاره تغيّرت تمامًا!

أصبح يفعل كلّ ما يطلبه أصدقاؤه دون أن يفكّر إن كان ذلك حلالاً أم حراماً، صحيحاً أم لا، هو ليس كأخي الكبير الواعي الّذي كنت أعرفه!

- لا بدّ أن يعود لرشده يا آدم، لا تتوقّف عن نصحه.

- نصحتُه كثيرًا حتى أبدى انزعاجه من إلحاحي عليه، يقول لي بكل كِبْر: "أنت لازلت صغيرًا يا آدم ولا تفهم بشؤون الشّباب! عندما ستبلغ الثامنة عشرة ستصبح شابًا حرًّا وتبدأ بعيش حياتك كما تريد، وتزول عنك كل العوائق التي كانت قبل الثّامنة عشرة، ستحصل على شهادة قيادة السّيّارة، وتسافر لوحدك، وتمارس نشاطات شبابيّة مثلي، لكنّها الآن لا تليق بالصّغار مثلك! "

يزعجني ويستفزّني حتّى أكاد أُجنّ، ماذا يظنّ نفسه وهو لا يكبرني إلا بثلاث سنين؟ كيف يستيقظ المرء في صباح يوم إتمامه للثّامنة عشرة من عمره وقد أصبح الممنوع مسموحًا؟ والحرام حلالًا؟ هل تقدّم سنّ الإنسان يبيح له أن يرى أفلامًا لا تليق؟ ويدخّن السّجائر ويذهب في رحلات مع فتيا...

- ششش.. اسكت يا ولد! لا تفضح أخاك أكثر! عندك ضيوف!

هيا لنكمل العمل فأمامنا نهار شاقّ.



• أودّ أن أعمل معك يا جدي،
أنا أيضًا أريد المساعدة.

نادته دانة بصوتها الرّقيق، فحملها الجدّ ووضعها فوق الطّاولة فرحًا مسرورًا.

• هيا يا ابنتي ضعي كلّ خمس أقراص من الخبز في كيس معًا، على يمينك الخبز، وعلى شمالك الأكياس.

وببصيرة قلب نيّرة، وذكاء عقل متّقد بدأت العمل بمهارة.

• أنت رائعة جدًا، بل تعملين أفضل من عمر وآدم.

ارتسمت على وجهها ابتسامة جميلة توحي بثقتها بنفسها وسعادتها بإنجازها.

• انظر إلى عمر يا جدّي، يعمل بهمّة وعزيمة وكأنه يتعارك مع قطع العجين، بل ويشتعل داخله أكثر من هذا الفرن! الحزن لا يفارق مُحَيّاه أبدًا!

حدّثه آدم بصوت منخفض.

• كان اللّه في عونه يا بنيّ، أرجو أن نجد والديه بأسرع وقت ممكن.

وبعد ساعات قال الجدّ:

- الخبز جاهز، هيّا إلى البلدة.
- أسرع يا عمر ربما التقيت بوالديك اليوم.
- أرجو ذلك يا آدم.

الفصل الثاني

وصلوا إلى البلدة ليقفوا على حجم الكارثة بأنفسهم، فرق الإنقاذ تنتشل ما بقي من الجثث القابعة تحت الركام في كلّ زاوية، حيوانات ميّتة، جذوع أشجار وأغصان تسدّ الطّرقات، سيّارات محطّمة تراكمت بعضها فوق بعض، مشرّدون بالكاد استعادوا بعض قوّتهم يتجوّلون باحثين عن قريب مفقود أو قطعة من الثياب تدفئهم، أو لقمة تسدّ رمقهم وتعيد لهم جُزءًا من نشاطهم، مناظر مؤلمة تحكي قصة نكبة أهلكت كل شيء، كل شيء حرفيًّا.

أثار المشهد الحزن والضيق في نفس عمر وآدم والجدّ محفوظ، فأطلق الجدّ تنهيدة طويلة يُتبِعُها بتكبيرات متتابعة توحي بثقل الكارثة على نفسه، وألمه للحال التي وصلت لها بلدة اللّوز المحببة لقلبه.

- الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أشعر أن قلبي يتمزّق، كيف لنا أن نحتمل كلّ هذا الألم! ساعدنا يا رب، أكاد أفقد عقلي من هول المنظر!

هيا ساعداني بتوزيع الخبز لكل من ترون من الناس، واسألا كل من تلقونه عن والدَي عمر، فليذهب كلٌّ منكما في جهة، وسنلتقي هنا بعد ساعة.

توجه الثّلاثة حاملين معهم ما يستطيعون من خبز، وقاموا بتوزيعه على المشرّدين، وقلوبهم يملؤها الحزن والأسى، والدّموع تنهمر بصمت على خدّي عمر بلا توقف.



حلّ المساء، واجتمعت الأسرة مجددًا في البيت

- لا أخبار عن والديّ هذا اليوم، القلق يكاد يقتلني يا جدّي
- استودعهم الله يا عمر، استودعهم الله.
- جدي انظر ماذا أرسل لي رامي!
- ماذا هناك يا آدم؟
- يقول إنّه بحاجة لمبلغ ضخم من المال، يحتاج عشرة آلاف دينار!
- ولمَ يحتاج كل هذا المبلغ الضّخم؟!
- لا أعلم، الذي أعلمه أنه مهدّد بالقتل إن لم يدفع المبلغ في أسرع وقت!
- ماذا؟ مهدّد بالقتل!؟ دعني أكلّمه.

ألو رامي، هل أنت بخير؟

- جدّي، دخلت في مقامرة مع رجل في أحد النّوادي، وعندما خسرت هدّدني بالقتل إن لم أدفع له.
- هذا ما جنَتّه عليك صحبتك السيئة! وماذا عن رصيدك البنكيّ المليء بالمال؟
- أصبح فارغًا يا جدي، يمكنكم بيع حصاني وتحويل المبلغ لي.
- لا حول ولا قوة إلا بالله، سأفعل ذلك، لكنك ستعود في أقرب طائرة قبل أن تحدث مصيبة أخرى.

- نعم سأعود في أقرب طائرة، مع السّلامة.

أغلق الجدّ الهاتف وقد انتفخ وجهه غضبًا وألمًا.

- يا إلهي! كيف يمارس أخي ألعابًا محرّمة؟! كيف يضع أمواله في خطر خسرانها لمجرد الحظّ والصدفة؟
- لم أفهم يا آدم، ما هي المقامرة؟
- لعبة ورق أو نرد أو غيرها من ألعاب الحظّ، يتّفق فيها الطّرفان على أن يدفع الخاسر منهما مبلغًا للرّابح، وهذا محرّم لما يسبّبه من خسائر كبيرة لأناس، وغنىً غير مشروع لآخرين حين يأخذون المال دون أيّ جهد أو عمل، بل بالصّدفة والحظّ لا أكثر، أو مع الكثير من الحيل والخداع من قِبل المحترفين الذين تمرّسوا بهذه الألعاب، بعد أن قضوا حياتهم في اللّعب وسلب النّاس أموالها، وكم دمّرتْ هذه اللّعبة من بيوت يا عمر.

صمت عمر وهو يراقب ما يدور من جدال بين آدم وجدّه، لاحظ توافق الطّباع والأفكار بينهما بشكل واضح، مما منح آدم حكمةً وفهمًا وعلمًا يفتقده أخوه الأكبر حسب ما لاحظه من سياق الحديث.

"عجيب أمرك يا آدم! رغم أنك أصغر سنًّا من أخيك إلّا أنك الأكثر أدبًا وفهمًا وتديّنًا، لا يكفي لأحدنا أن يكون كبيرًا ليكون ناضجًا إذًا"

كانت تدور هذه الأفكار في ذهن عمر بينما يستمر النقاش بين آدم وجدّه:

• لكن كيف يستغني أخي عن "الأدهم"؟! إنه حصانٌ عربيٌّ أصيل، ورفيق طفولته، وأجمل خيولنا على الإطلاق!

• عليه أن يتحمّل نتيجة أفعاله، سأبيع حصانه غدًا، وأرجو أن يعود إلينا بلا مصيبة أخرى.

هيا تناولوا الغداء واذهبوا لترتاحوا، علينا أن نكثر من صناعة الخبز، فالجياع كثر هذه الأيام.

• هنيئًا لك يا جدي، كم أنت شهم كريم!

• صنائع المعروف تقي مصارع السوء يا عمر، أسال الله أن يحفظنا جميعًا من كل شرّ وأن يتقبّل منا صالح الأعمال.

هل ملأت السّلة يا آدم؟

• ملأتُها يا جدي.

ذهب الجدّ لغرفته منهكًا مهمومًا، بينما بقي عمر وآدم يتبادلان الحديث.

• سلّة ماذا تلك التي يقصد جدّك؟

• جدّي كان يعمل خبّازًا عندما كان شابًّا، ثم كبر أبي وصار كبير التجّار، ورغم ذلك لم يرضَ جدّي أن يتخلّى عن مهنته ومخبزه، بقي يخبز لنا ولأقاربه وأصحابه كلّ يوم، ويضع سلّة في أول الحيّ، يملؤها بالخبز يوميًّا، يأخذ منها الفقراء والمحتاجون، يفعل هذا كل يوم منذ أن عرفت هذه الدنيا.

• ما شاء اللّه، جميل جداً!

• انظر من النّافذة، إنها هناك، هل ترى أولئك النّاس حولها؟

• نعم أراهم، المساكين، ربما لم يبقَ فيها رغيف.

في اليوم التالي وأثناء العمل في المخبز صباحًا ورد اتّصال جديد من رامي في تكساس، لكنه كان أشدّ سوءً هذه المرة!

• تم احتجازي يا آدم، عليّ دفع ثلاثة ملايين دينار، لن يتركوني حتى أدفع.

• هل عدت للقمار مرة أخرى؟ ماذا تريد أن تفعل بنا أيُّها الأحمق!

أخذ الجدّ الهاتف بسرعة من يد آدم:

• ألو رامي، ألم أخبرك أن تتوقّف عن حماقتك؟ هل تريد تدمير أبيك؟

• لم أقصد ذلك! حاولت إصلاح الموقف، فقد شعرت بالحزن لبيع حصاني الأدهم، فحاولت أن أخوض تجربة أخرى علّي أعوض خسارتي السّابقة قبل أن تبيعه، لكن للأسف خسرت وخسرت وخسرت، وهذا ما حصل ولا يمكنني العودة.

• أخبرهم أننا لن ندفع حتى يأتوا إلى هنا لاستلام المبلغ.

• لن يوافقوا يا جدي، وهدّدوني بالقتل إن أبلغتم الشّرطة، أرجوكم لا تخبروا الشّرطة فهؤلاء لا رحمة في قلوبهم!

- أبلغهم أن البنك يرفض تحويل مبلغ ضخم كهذا، فليأتوا إلينا لندفع لهم.
- طلبوا مني تحويل ثلاثين ألفًا الآن، والباقي يستلمونه عندما يأتون معي إليكم.
- اللّهم أنت المستعان، ما هذه المصيبة التي أوقعتنا بها يا رامي، مع السّلامة.
- لماذا تريد منهم أن يأتوا إلينا يا جدّي؟
- فعلت هذا لنكسب بعض الوقت للتفكير، عسى أن نجد حيلة جيدة تمكّننا من إنقاذ رامي بأقلّ خسارة ممكنة، أرجو أن نصل لحلّ ينقذنا من هذه الكارثة.

هيا لنتّصل بوالدك يا آدم ونحكي له قصة رامي.

بينما كان الجميع منهمكًا بالاتّصالات كان عمر يراقب حال الأسرة التي كثيرًا ما ظنّها سعيدةً بلا مصائب ومشكلات، دارت الأسئلة في عقله مرارًا تريد جوابًا شافيًا لها، فقال في نفسه:

"فتاة مكفوفة لم تحظ بفرصة رؤية هذا النّعيم والتّمتّع فيه، وابن ينعم بأموال كثيرة يظن النّاظر أنّها نعمة، لكنها صارت في لحظةٍ نقمةً تكاد توردهم المهالك!

هم أيضًا لا يعيشون تلك السعادة التي كنت أظنّها، هم أيضًا عندهم هموم ومشكلات، وربما لو بقيت هنا لفترة أطول لاكتشفت مشكلات أخرى لم أطّلع عليها بعد، ما الذي يجعل السعادة المطلقة أمرًا صعب المنال؟! لماذا كلّ النّاس غنيّهم وفقيرهم يذوقون المرّ بين الحين والآخر لكن كلّ واحد منهم بطريقة مختلفة؟ ما الحكمة من كل هذا؟!

لاحظ الجد شروده الطويل فسأله:

- مالك يا عمر؟ هل أنت بخير؟
- لا شيء.. أنا بخير والحمد للّه.
- هل يمكنني مساعدتك؟
- في رأسي أسئلة تُلحّ عليّ، ولا أعرف لها جوابًا!
- تفضّل واسأل، جدُّك يسمع يا عمر.
- أريد أن أعرف لماذا نحن موجودون في هذه الدّنيا؟ لماذا علينا أن نخوض كل هذا الشّقاء؟!

وضع الجدّ الهاتف من يده وأوقف اتّصالاته.

- تعالَيا معي إلى جانب المدفأة لنشرب كوبًا من الشّاي ونتحدّث معًا.

هل تؤمن بوجود اللّه يا عمر؟

- نعم طبعًا، أنا متأكد أن اللّه موجود.
- كيف تأكدت من ذلك؟

- عندما رأيت ثمانية أرانب تخرج من بطن أرنب صغيرة ذهلت لهذا، وازداد الأمر عظمة عندما توجّهتْ كلها لترضع من أمّها وكأنها تعرف مصدر رزقها بغريزة يستحيل أن توجد فيها صدفةً، ليس ذلك فحسب، يمكن للأرنب أن تلد عدة مرّات في السّنة أعدادًا كبيرة كلّ مرّة، رغم أنها مخلوق صغير ضعيف جدًا، لا يَعقل ولا يملك من أمره حولًا ولا قوّة!

تأكدت أن اللّه الخالق الذي تُحدّثني عنه أمي دائمًا موجود فعلًا، فما رأيته معجزة حقيقية يستحيل أن تحصل صدفة، ويستحيل أن تكون بفعل مخلوق مثلنا، بل لا بد من إله عظيم خلقها بالتّأكيد.

- تجربة رائعة تلك الّتي مررت بها يا عمر. فما رأيك بهذا الكون الفسيح بما فيه من مجرّات وكواكب والذي يعتمد في سيره على قوانين دقيقة جداً تجري بانتظام منذ مليارات السنين؟! هل يمكن أن يخلقه اللّه عبثًا بلا هدف؟

وماذا تقول عن وجود مليارات البشر الذين عمروا الأرض سنين طويلة، فأصلح بعضهم وأفسد آخرون، هل يمكن أن يوجدوا صدفة أو أن يخلقوا عبثًا بلا هدف أيضًا؟!

- لا طبعًا، يستحيل لكلّ هذا أن يكون صدفةً، كما يستحيل أن يكونوا قد خُلِقوا عبثًا بلا هدف!

علّمني أبي أن أفكّر دائمًا في سبب وجود الأشياء، والتأمّل فيها وملاحظة تفاصيلها واستنتاج طريقة عملها ودقّة صنعها، خاصّة تلك العظيمة والغريبة منها، مرّة رأيت برنامجًا وثائقيًا عن الأهرامات على التّلفاز، وكنت أتناقش مع أبي حول ضخامتها وطريقة بنائها وأسرارها، وأول سؤال سألته لأبي هو: (من بنى هذه الأهرامات؟ ولماذا تم بناؤها؟ يستحيل أن تكون صدفة ويستحيل أن تُبنى عبثًا!)

- رائع يا عمر، أنت ذكيّ جدًا، ووالدك رجل فطن فتح آفاق التفكير في عقلك، وزرع حب المعرفة في نفسك.

وأنت يا آدم، هل تؤمن بكتاب الله الذي أنزله على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم؟

- نعم أؤمن به بلا شكّ، فالله الخالق أرسل الرّسل إلينا لنعرفه ونعرف رسالته التي يجب أن نلتزم بها.

- وكيف صدّقت أنهم رسل من الله خالقك؟

- لأنّ اللّه أعطاهم من المعجزات ما يدلّ على أنهم رسل اللّه، وكان القرآن الكريم معجزة رسولنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فيه من الآيات ما يعجز أكبر الشّعراء والكتّاب عن أن يأتوا بسورة مثله، وفيه آيات تخبرنا بحقائق تدلّ على أن خالق هذا الكون هو من أنزل هذا الكتاب المحكم، الذي استعصى على التحريف والتزوير لحفظ اللّه له، فلم يتغيّر منه حرف منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة.

- ممتاز ما شاء اللّه.


أردف عمر قائلًا:



- ولكن ما علاقة ما قلنا بسؤالي يا جدي، لم أعرف إلى الآن لماذا أنا موجود في الدّنيا.

- اللّه تعالى الّذي تؤمن به يا عمر أخبرنا بكتابه الّذي تؤمن به أيضاً عن سبب وجودنا في هذه الدّنيا.

فاللّه تعالى يقول: (وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون)

• هل أنا موجود في الدّنيا لأصلي وأصوم وأحجّ البيت فقط؟

• لا تتعجّل يا بنيّ..فأنا لم أنتهِ بعد!

اللّه تعالى خلقنا لعبادته، نعبده بما أمرنا من عبادات، من صلاة وصيام وزكاة وحجّ، نلتزم بما علّمنا من قيم وفضائل، نعين المحتاج ونساعد الضّعيف ونؤدي الأمانة ونطلب العلم، نبني أرضنا ونعمرها بالخير، وننشر دين التّوحيد، ونحكم بين الناس بالعدل، ونترك ما حرّم علينا ونبتعد عما نهانا عنه في كتابه وسنّة نبيّه، ففي ذلك صلاح دنيانا التي نعيش اليوم، وصلاح آخرتنا لنكون من أهل الجنّة ونقي أنفسنا من النار، فاللّه غنيّ عنّا، لا تنفعه عبادتنا ولا يضرّه كفرنا.

• وما علاقة الحكم بين النّاس بالعدل وعمارة الأرض وإصلاحها بعبادة اللّه؟ ألم تقل إن اللّه خلقنا لعبادته فقط؟

• العبادة ليست الصلاة والصيام والزكاة والحجّ فقط، بل هي مفهوم شامل لكل ما يحبّه اللّه من أفعال وأقوال، هل تعرف كيف تصبح دراستك الشّاقّة عبادة؟

• وهل يمكن ذلك؟

- نعم، عندما تتعلّم لأن اللّه أمرنا بطلب العلم وتدرس طاعةً للّه فأنت في عبادة، كذلك عندما تزرع الأرض لتطعم أهلك تبتغي بذلك وجه اللّه فأنت في عبادة، وعندما تكون تاجرًا أو صانعًا أو عامل بناء تؤدّي عملك كما يحبّ اللّه لتزدهر أمّتك فأنت في عبادة، وعندما تمارس أي عمل يوميّ يحبّه اللّه كالنّظافة والرّياضة وبرّ والديك والإحسان لجارك، حين تؤدي كلّ ذلك لرضى اللّه فأنت في عبادة، وهذا يسمّى "الاستخلاف في الأرض" فاللّه خلقنا خلفاء فيها نعمرها كما يريد ويرضى..

- جديدة عليّ هذه الكلمة، الاستخلاف!

- ألم تر أنّ اللّه تعالى عندما أراد خلق آدم عليه السلام، قال للملائكة كما ورد في كتاب اللّه (إني جاعل في الأرض خليفة) فكان آدم عليه السلام خليفة في الأرض، يحكم بما أراد اللّه من تشريع، ويتولّى مهمّة عمارة الأرض لتكون صالحة لحياة البشر، ليؤدوا عباداتهم كما أراد اللّه، ونحن خلفاء من بعد آدم كذلك، وهذه غاية وجودنا في هذه الدنيا، فمن أحسن العمل واجتهد وبذل، كان جزاؤه الفردوس من الجنان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

- علّمتني أمّي أن الجنّة أعظم هدف يستحقّ أن نبذل جهدنا لأجله، وعلمتني أداء العبادات والأعمال الصالحة، لكن هذه المصيبة جعلتني أتألم لدرجة أنني تساءلت عن سبب قدومي إلى هذه الدنيا أصلاً!!

- أتَفهّم أَلَمك يا عمر، فما مررت به ليس أمرًا سهلًا يمكن تجاوزه بسهولة.

اطمئنّ يا بني، فنحن نؤمن بالله وبكتاب الله، ونؤمن بأسمائه وصفاته، فالله حكيم لا يخلق عبثًا، والله عليم لا يُسأل عما يفعل، والله عدل لا يظلم مثقال ذرّة، وكلّ هذا يجعلنا نشعر بالرضى والأمان، فنحن نعيش برحمة الله الرّحيم، وأقدارنا بين يدي لطيف خبير، فالحمد لله الذي أكرمنا بأن جعلنا من عباده، والحمد لله الذي رزقنا الإيمان والرّضا والصّبر لنكون من الفائزين.

هل تعلم يا عمر، عندما تدخل الجنّة وترى الملائكة ترحّب بك وبأهلك وأصحابك، وترى القصور تجري من تحتها الأنهار، وتحظى بنعيم رؤية الله تعالى فلن تقول وقتها "لمَ خلقتني يا رب؟" بل ستحمد الله الذي خلقك في هذه الدّنيا وامتحنك لأيّام قليلة ورزقك الصّبر والفوز في الاختبار، وأثابك نعيمًا دائمًا لا ينتهي ولا ينقطع، ألا نصبر في هذه الدّنيا القصيرة التي ستنتهي بعد سنوات حتمًا، مقابل العيش في روضات الجنّات خالدين فيها أبدًا؟

- بلى، الجنة تستحقّ منا الصبر والثبات والعمل، وقد اشتقت للجنّة أكثر هذه الأيّام حتى أجتمع فيها بوالديّ يا جديّ.

- أرجو ذلك يا عمر، ستجتمع بهم في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله.

والآن عليّ أن أجد حلًّا لننقذ رامي، ونواصل صنع الخبز للمحتاجين، هيا ليكمل كلّ منكما مهمّته، وأنت يا دانة هيا لتقومي بتعبئة الخبز في الأكياس الورقية، فنحن لا نستطيع النّجاح دونك.

• حسنًا يا جدّي، سأعمل معكم حتى النهاية.

واصل الجميع عملهم بهمّة بلا توقف، وتجهّزوا للذهاب لتوزيع الخبز والبحث عن والديّ عمر.

• اذهبا لتوزيع الخبز، بينما أتدبّر أمر إرسال المال لرامي.

• ومن أين ستحصل على ذلك المبلغ الضخم يا جدي؟ تعرّض أبي لخسارة كبيرة قبل مدّة ولا أظنه يملك مبلغًا نقديًا كهذا!

• تحدثت مع والديك، سيعودان اليوم مساءً بعد صدمتهما الشّديدة بالكارثة التي حلّت بالبلدة أولًا، ثم المصيبة التي فعلها رامي، يكاد أبواك يختنقان حزنًا وألمًا يا آدم، وقد أوصاني والدك أن أبيع الخيول كلّها في السّوق الآن وأرسل المبلغ لتكساس.

• ماذا تقول؟ كل الخيول؟ وما ذنبي أنا ودانة؟ لماذا تباع خيولنا؟

• إنه أخوك يا آدم، ألا تضحّي من أجل سلامته؟

• أحبّ أخي بالتّأكيد، لكن..

• أنت تتفهم خطورة الموقف يا آدم أليس كذلك؟

• نعم أتفهم هذا.

• لن تبيع شهباء يا جدّي، هذه مهرتي وصديقتي لا أسمح لكم بهذا!

- دانة!
- هذه صديقتي يا جدّي ألا تعلم هذا؟!

حين يتركني الجميع غارقة في عتمتي هي وحدها من تخفّف عني، أحدثها وأحكي لها فتسمعني، تلهو معي فلا تملّ ولا تضجر، لا تتركني للخادمة وتسافر بعيدًا لتفرح دوني، أرجوك جدّي لا تبع شهباء، أرجوك جدي.

فاضت العيون الزّرقاء بنهر من الدّموع، وتفطّرت قلوب الحاضرين لمشاعر الألم الكامن في قلبها، تلك المشاعر التي حكتها كلماتها بحرقة ممزوجة بالأسى، وترجمتها دموعها لتزيد قلوب السامعين تحطّمًا وانكسارًا.

كانت شهباء لها أكثر من مجرد حصان، فهي دليلها لتجوب العالم دون أن تتعثر، لتشعر أنها حرّة تمشي بلا خوف من سقوط أو ضياع.



لكن قسوة الحدث كانت تفرض على الجميع التخلّي عن أغلى ما يملكون.

- اعذري أباك وأمك حبيبتي دانة، لم يتركاك وحيدة أبدًا، بل أبقياك معي في أمانتي لأيّام قليلة، ألا تحبّين جدّك يا دانة؟ هذه أول مرّة يسافران فيها من دونك بعد أن تأكّدا أنك بأمانة جدّ يحبّك أكثر من نفسه الّتي بين جنبيه.

أما الآن يا دانة، لا يمكننا ترك أخيك في ورطة، نحن مضطرّون لبيع شهباء، أعدك سأشتري لك غيرها.

- لا أريد غيرها، لا أريد غيرها.

لم يتمالك الجدّ نفسه لتنهمر دموعه أيضًا بصمت، أشاح وجهه عنها بألم وخرج قاصدًا الإصطبل، أخذ الخيول الثّلاثة وانصرف.

ارتمت دانة في حضن أخيها تبكي بحرقة، لم يستطع آدم إطفاء الحريق داخلها، ولم تفلح عبارات المواساة بتخفيف ألمها.

- حبيبتي دانة، أخوك في خطر، ألا تحبّين رامي؟
- رامي الذي تركني وذهب للسّياحة وحده؟ رامي الذي لا يلاعبني إلا كلّ شهر مرّة؟ رامي الذي يتذمّر مني حين تتّسخ ملابسي أثناء تناول الطّعام؟ لا أحبّ رامي بل أحبّ شهباء أكثر.
- آه حبيبتي، أرجوك اصبري، أنا أيضًا سأفقد حصاني.
- لا أريد أن أصبر، أريد شهباء فقط.
- عليّ أن أذهب لتوزيع الخبز يا دانة، لن أتأخر، سأعود بعد ساعتين إن شاء الله، الخادمة ستهتم بك.
- اذهبوا كلكم، لا أريد أحدًا أبدًا، أنا أكرهكم.

- دانة حبيبتي، سيكون كلّ شيء بخير، إن كنتِ تكرهينني فأنا أحبّك يا دانة، صدّقيني أنا أحبّك! أعدك أنّني لن أتأخر.

الفصل الثالث

أخذ آدم وعمر الخبز وانطلقا إلى البلدة لتوزيعه على المنكوبين.

تجمّع المشرّدون الجياع حولهما ليأخذوا كلّ ما لديهما من خبز بغمضة عين، تجوّلا في البلدة وسألا في كل مكان عن والدي عمر، لكن بلا جدوى.

- هيا يا عمر لنعُد إلى المنزل، سنأتي غدًا ونسأل أكثر عن والديك، أشعر أن قلبي يتمزّق على أختي دانة لا يمكنني تركها أكثر.
- الحقّ معك يا آدم هيا لنعد لمواساتها.

وصلا المنزل ليبحثا عن دانة ويقضيا معها بعض الوقت علّهما يخفّفان بعضًا من حزنها.

- دانة، لقد عدنا بسرعة اليوم، ألم أخبرك أنّني أحبّك وسأعود سريعًا لأجلك؟

دانة، دانة، أين أنت؟
أين هي؟

- لا أعلم، هيّا لنسأل الخادمة.

توجّها نحو الخادمة بسرعة.

- هل تعرفين أين ذهبت أختي؟

- لا أعرف، كانت هنا قبل قليل!

- لا تعرفين؟ أين ذهبت؟

ركض الجميع في أرجاء المنزل باحثين عن دانة، تفقّدوا الغرف والحديقة ومخبز الجدّ.. لم يجدوا لها أثرًا!

- دانة أين أنت؟

يا إلهي! ربما خرجت تبحث عن جدّي ليعيد شهباء.

هيا لنخرج للبحث عنها، هيا يا عمر.

اللهم الطف بنا، كم مصيبة ستحلّ بنا بعد؟ اللهم ساعدنا يا ربّ.

- ألو جدّي، أرجوك عد إلى المنزل، لقد اختفت دانة.

- ماذا تقول!؟ أنا قادم فورًا، ابحثوا عنها في كلّ مكان.

- هيا يا عمر، اذهب وابحث من هنا وأنا أبحث من هناك، علينا أن نجدها في أسرع وقت قبل أن تقع في حفرة مملوءة بالماء، أو تتعثر بأكوام الرّكام هنا وهناك.

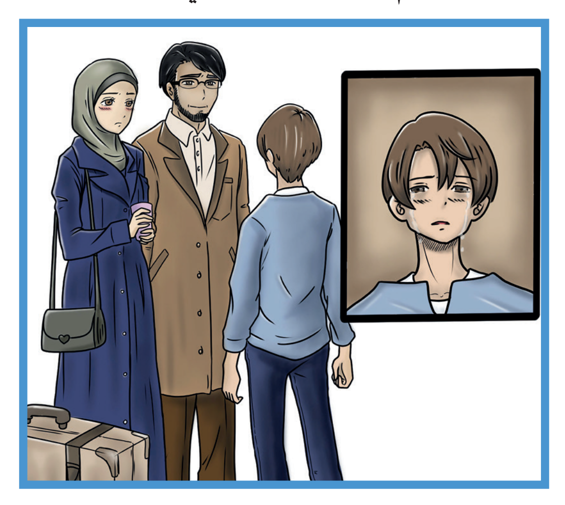
يا ربّ الطف بها يا ربّ.

عاد الجدّ بسرعة وبدأ البحث معهما، واجتمعوا في أحد الشوارع في البلدة.

- هل بعت الخيول يا جدّي؟

- بعت حصانك وحصان أخيك، بينما قمت برهن شهباء عند التّاجر، تعاطف معي عندما قصصت عليه قصّة دانة، فقبل برهن مهرتها، وأعطاني المال على أن أردّه بعد شهر وأستعيد شهباء.

كم كنت سعيدًا بهذا، كنت أنتظر لحظة وصولي لأحكي لدانة الخبر، فأمسح دموعها بيديّ وأرى البسمة مجدّدًا على وجهها البريء، لكن فرحتي لم تكتمل. بحث الجميع عنها بلا فائدة، حلّ المساء ووصل الوالدان إلى المنزل والحزن يملأ قلبيهما، فارتمى آدم في حضن أمّه يبكي بحرقة.



- أين أنتما؟ انظرا إلى كل هذه المصائب التي نزلت علينا دفعة واحدة بينما أنتما مسافران للسياحة!

مسحت الأم دموعها وغصّت ببكائها وحاولت أن تخفّف عن آدم.

- ما أشدّ ألمي يا آدم، هل كنا سنسافر إن كنّا نعلم حدوث هذا؟ هل تظنّ أنّنا نرضى بشوكة تصيبكم؟ ألا تعلم أنّكم أغلى من أرواحنا؟ لم يكن الهدف من سفرنا السّياحة يا بنيّ، بل كان سفرنا لعلاجي من مرض ألمّ بي مؤخّرًا ولم أجد له علاجًا في البلدة، ولم نشأ أن نخبركم به.

- أنت مريضة يا أمي؟

- ذهبت للطّبيب وأنا أتماثل للشّفاء يا آدم، أنا بخير والحمد للّه.
- سامحيني يا أمي، شفاك اللّه من كل سوء.

توجّه آدم لأبيه باكيًا ليرى دموع أبيه التي تنهمر بصمت على وجنتيه أشدّ حرقةً من دموعه.

- سامحني يا أبي، لعلّي قسوت عليكما بكلامي، لكنّ قلبي يحترق على دانة.
- الحقّ معك يا آدم، كلنا تتقطّع أرواحنا خوفًا عليها.
- هذا عمر الّذي حدّثتك عنه على الهاتف يا أبي.
- أهلاً بك يا عمر، حكى لي ولدي آدم ما حصل معك أيضًا، أرجو أن تجد والديك في أسرع وقت، ها نحن مثلك اليوم نشعر بألم الفقد وحرقته.

نحن اليوم أهلك الجدد، أنا أبوك وهذه أمك فلا تشعر بالحرج أبدًا يا بنيّ.

- أنتم طيّبون جدًا يا عمّ، أشكركم من كل قلبي.

سنجدهم كلّهم إن شاء اللّه، والديّ ودانة، وسيعود رامي بخير قريبًا بإذن اللّه.

- نعم سيعودون كلّهم بإذن اللّه.
- سنخرج للبحث عن دانة في كلّ البلدة، عمر وآدم ابقيا هنا فالظّلام دامس والفوضى تعمّ البلدة، ونخشى عليكما الضّياع.

- حسنًا يا أبي، أرجو أن تعودا ودانة معكما.

لم يزر النّوم عيني آدم وعمر، كان القلق يعبث بقلبيهما، ليقضيا اللّيلة يتحركان جيئة وذهابًا، ينظران من هذه النافذة تارة ومن تلك أخرى، عسى أن يحظى أحدهما برؤية طيفها.

- انظر يا آدم، كلّ أولئك الناس يأخذون الخبز من السّلة، رغم الألم وشدة المصاب لم ينسَ جدك أن يملأها خبزًا!!
- ربما نسي جدي نفسه أحيانًا بلا طعام، لكنه لم ينسَ السّلة يومًا بلا خبز!



فتح آدم هاتفه المحمول لمراسلة رامي ليطلعه على ما حصل:

- السّلام عليكم، كيف حالك رامي هل أنت بخير؟
- وعليكم السلام، أهلا آدم، نعم أنا بخير، محتجز في غرفة داخل النادي.
- حماك اللّه يا رامي، أرجو أن تمرّ هذه المشكلة على خير.

هل تعلم ماذا حصل لدانة؟

بعد أن أخذ جدّك الخيول ليبيعها حزنت لفراق شهباء، وخرجت من المنزل ولم تعد إلى الآن.

- ماذا تقول؟ هل فُقدت دانة؟!

- نعم، فُقدت دانة

- لماذا يحصل معي كل هذا؟ ماذا فعلت بك يا أختي؟

- كل هذا لتتمتّع بحريتك الحمقاء.

- توقّف عن لومي يا آدم ألا ترى ما أنا فيه؟

- لازلت لا تفكّر إلّا بنفسك، انظر لما جنته يداك، ما ذنب أختك دانة لتتعرّض للمصائب بسببك، لا أعلم كيف حالها، هل هي على قيد الحياة أم لا، البلدة مليئة بالرّكام والطّرقات أغلبها مسدودة، والجثث مبعثرة في الأرجاء، لا أعلم أين اختفت وسط كلّ هذه الفوضى.

- أرجوك يا آدم لا تزد همّي همًّا، أعلم أنني أخطأت.

- نعم أخطأت! وكثيرًا جدًا، كم نصحتُك أن تترك الصّحبة الفاشلة التي التفّت حولك مؤخّرًا، فما وجدت منك إلا السّخرية، ولم أسمع منك إلا اتّهامي بالتّخلف والجمود، هل نفعتك الحريّة المزعومة؟ هل استمتعت بوصولك للشّباب بالشّكل اللّائق؟ هل اكتشفت أن التزامك بالعبادات والقيم الدّينية ليس مجرد قيود تحدّ من حرّيتك كما كنت تدّعي، بل حماية لك ولمن حولك من الفتن والبلاء والمصائب؟

هل اكتشفت أنّ المال ربّما يكون مصيبة عليك أكثر من الفقر؟

انظر لحالنا الآن! هل وصلنا لهذا إلا بسبب غرورك، لتنفق متباهيًا بغناك أمام الجميع وتثبت رجولتك بطريقة لا تدلّ إلا على الحماقة؟

• أبي وأمي سمحا لي بذلك.

• بعد ماذا؟ بعد أن بقِيت تلحّ عليهما ليل نهار، وتشكو الملل والضّجر، وتشعرهما أنهما ظالمَين لك.

أثَرْت في نفسَيهما مشاعر الشّفقة لتحصل على ما تريد.

لم تستمع لنصيحتي ونصيحة جدّك وتمسّكت برأيك ولحقت هواك، وها نحن نتمتّع بنتائج حرّيتك المقدّسة، تبًّا لك ولحرّيتك.

• توقّف يا آدم، يكاد الهمّ يقتلني، لا تضغط عليّ أكثر أكاد أنفجر.

• لن أضغط عليك أكثر، ابق هناك مسجونًا في غرفة بينما أختك تائهة في الطّرقات لا نعلم مصيرها.

• يكفي هذا، دعني وشأني.

وأغلق رامي الهاتف.

هناك كان محبوسًا.. غرفة صغيرة مليئة بالفوضى، والحشرات تغزو كل ركن من أركانها، زاوية منها تمتلئ بأغطية طاولات متسخة وأخرى بأدوات النادي التالفة، تمامًا كغرفة الفئران التي كانت مصدر خوف بعض التلاميذ في الطّفولة.

وفي مساحة صغيرة فارغة إلا من الأوساخ المتراكمة على الأرضيّة، جلس رامي وأوصاله ترتجف غضبًا وغيظًا من عجزه وقلّة حيلته، والقهر يملأ قلبه ندمًا على طيش أصرّ عليه فأورده المهالك.

بدأ بالصّراخ والضّرب على الباب بقوّة.

- افتحوا الباب، أريد أن أخرج.
- ماذا تريد أيّها الفاشل؟
- أختي في خطر أريد أن أسافر إليها.
- سنسافر معًا في الغد، طبعًا إن وصلتنا أول دفعة كما اتّفقنا.

ثم أردف قائلاً: هيا اجلس فلا نريد المزيد من الإزعاج، تنتظرني ثروة كبيرة في الغد ولا أريد أن أعكّر صفو مزاجي بصراخك.

- ثروتك هذه ستأخذها من تعب أبي.
- بل سآخذها بسبب حماقتك.
- أنتم لصوص، لصوص.
- وهل كنت ترضى أن تكون لصًّا لو كسبت الرّهان؟ بالطّبع ستسمّي نفسك وقتها أسماء فخمة (شاطر، ذكيّ، فالح...) وغيرها من الألفاظ اللّبقة التي تخدّر ضميرك وتشعرك بأنك حصلت على المال بأسلوب حلال!



الفرق بيني وبينك أنني أنا الرّابح وأنك أنت الخاسر فقط.
لعبة لا تحتمل نتائجها إيّاك أن تخوضها مرّة أخرى.
هيا اذهب إلى النّوم وكفاك بكاءً كالأطفال.

لا أعلم كيف لشابّ مثلك بالكاد تجاوز الثامنة عشرة أن يسافر حاملًا كلّ تلك المبالغ الماليّة! ولد بسنّك لا يحتاج كلّ هذا المال! فرقائق البطاطس ليست غالية جدًّا! هذا المال من الطّبيعي أن ينتقل إليّ، فأنا بحاجته أكثر منك، سأعيش حياتي ثريًّا مرفّهًا في حين تعود لحضن أبيك ليملأ جيبك من جديد، لا تقلق فأنت من عائلة تعيش على بئر من ذهب كما يبدو.

- أنا لست طفلًا أيها اللّص.

- ربما جسمك يوحي بأنّك لست طفلًا، لكن سوء تدبيرك يدلّ على أنك طفل مدلّل يحب اللّهو والعبث ويظن أن المال كفيل بأن يجعله رجلًا.

القصّة أكبر من ذلك يا ولد!

هيا لا تجادل أكثر.
غدًا صباحًا سننطلق إلى أهلك، هل اشتقت لحضن أمك يا مدلّل؟

أغلق وسيم الباب وضحكاته تملأ المكان، ونشوة الفوز لا تفارق محياه.

جمال وجهه لم يتغير رغم حبه للشر وفعله القبيح، بل بقيت وسامته ولطف حديثه الطريقة المفضلة لديه للخداع والمكر والإيقاع بالناس.

أخذت الأفكار تدور في رأس رامي بلا توقّف:

- رجل وسيم، واسمه وسيم، بزّة رسميّة وشعر مصفّف بأناقة، يتحدّث بلباقة عند أوّل لقاء، يعرف كيف يقنع من حوله بأنه الأكثر أدبًا ونزاهة على هذا الكوكب!

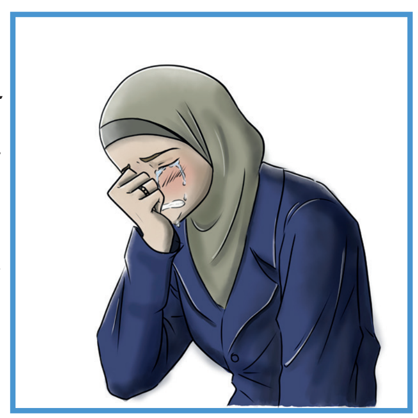
لم أشعر أنه مخادع أبدًا، حتى عندما أقنعني أنّ عمله قانونيّ تمامًا، لكنّه كان كاذبًا، احتال عليّ بأساليب شيطانيّة ودفعني للرّهان على مبالغ ضخمة أكبر من قدرتي بكثير، لم أكتشف أنّ اللّصوص والمخادعين قد يظهرون بهذه الصّورة الأنيقة والمقنعة حتى وقعتُ بالفخ، شكله ليس قبيحًا، ملابسه ليست ممزّقة ولا متّسخة كما كنت أرى في الأفلام، لا يلبس جزمة قديمة، لا آثار جروح تقطع حاجبه ولا لمعة شرّ تسطع من عينه كلما التفت. كم كانت المظاهر خدّاعة!

كم تصرّفت بطيش وحماقة! كيف فعلت كل هذا بنفسي وعائلتي؟! لو أنّني من كسبت الرّهان لكنت أخذت ماله بغير حقّ كذلك، وكنت لصًّا مغفّلًا بدلًا من أن أكون لصًّا مخادعًا!

لا.. لو كسبت الرّهان لما كنت حصلت على شيء، بل كان سيرميني ببساطة خارج النّادي دون أن يرفّ له جفن.

بتهوّري وبحثي عمّا كنت أظنّه حرّيتي الشّخصيّة أهلكت نفسي، آذيت أختي المكفوفة البريئة، أتلفت أموال أبي التي جمعها من تعبه وعرق جبينه، جعلت كل من في البيت يعيشون القلق والخوف والحزن.

ليتني استمعت نصائحك يا جدي، اللّهم تولّ أمري يا ربّ.



في ساعة متأخّرة من اللّيل عاد الجدّ محفوظ وأبو رامي إلى المنزل، كانت ملامح وجهيهما تحكي نتيجة البحث، عبوس وهمّ وقلق وحزن.

- ماذا حصل معك يا زوجي؟ هل وجدت دانة؟

- سنجدها يا زوجتي، سنجدها إن شاء اللّه، اللّه لا ينساها وهو أرحم بها منا، لا تخافي وسلّمي أمرك للّه.

- ونعم باللّه، يا رب احفظ دانة وسخّر لها من يهتم بها، أكاد أفقد عقلي تمامًا.

- اصبري يا زوجتي، أنت لم تتوقفي عن البكاء لحظة واحدة، لا تهلكي نفسك فلازلت مريضة حبيبتي.
أرجوك اصبري، استودعيها عند اللّه واللّه يتولّى أمرها

اللّه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين

في صباح اليوم التّالي استلم وسيم المبلغ الذي طلبه كاملًا، ثلاثين ألفًا كدفعة أولى بعد أن أرسله والد رامي من البنك.

- أبي كيف ستتدبّر بقيّة المبلغ؟

ثلاثة ملايين دينار ليس مبلغًا سهلًا.

- غالبًا سنبيع منزلنا هذا، ونصلح منزل والدي القديم في البلدة بعد أن تهدّم جزء منه بفعل السّيل ونسكنه من جديد.

- ماذا يا أبي؟ هل سنفقد منزلنا أيضًا؟

- لا يهمّ أن نفقد منزلنا، المهم أن يعود أخوك بخير وتعود أختك حبيبة قلبي بخير، لتذهب أموال الدنيا إلى الجحيم، كلها لا تساوي شيئًا مقابل سلامتكم، ما فائدة المال إن كان سبب هلاكنا وفقد أحبّاء لنا؟

- كنت أظنّ أن المال هو السّعادة في هذه الدّنيا يا عمّ، لكن يبدو أن الحقيقة مختلفة!

- المال قد يعينك على تحقيق بعض أسباب السّعادة بلا شكّ يا عمر، لكنه ليس كلّ السّعادة.

هل ستكون سعيدًا لو وجدت والديك الآن سالمَين، أم ستكون أكثر سعادة بكنز من المال يُهدى إليك بلا مقابل؟

- لا شيء يسعدني في الدنيا اليوم أكثر من لقاء والدَي وقربي منهما.
- ربما لم يكن هذا خيارك قبل أن تفارقهما أليس كذلك؟
- نعم.. المحن تغير الكثير من قناعاتنا
- تمامًا، للسعادة مقومات وأسباب كثيرة، تجتمع بعض مقوماتها أحيانًا فنشعر بقدر أكبر من السعادة، ونفقد بعضها في الابتلاءات والمصائب فنشعر بالحزن.
- لهذا لا يمكننا اعتبار المال هو سبب السعادة الوحيد
- بالضبط، اللّه قسّم الأرزاق بين النّاس يا عمر، أعطى بعضهم مالًا، وآخرين صحة وعافية، وبعضهم جمالًا، أو نسبًا ومكانة.

وكلٌّ منهم يُمتحَن بطريقة تختلف عن الآخر.

والامتحان قد يكون ظاهرًا كالفقر والمرض والفقد، وقد يكون خفيًّا كالعافية والغنى.

أما من كان ابتلاؤه ظاهرًا كالمرض والفقر والشّدّة فيختبر اللّه صبره ومدى رضاه بقدره وصدق توكله على ربه وتضرعه بين يديه، وسعيه لرفع الضر عن نفسه.

- فعلًا يا عمّ، فمنذ أن فاض السدّ وتدمرت البلدة وفقدت والديّ وأنا أتقرّب إلى اللّه بالطاعات والعبادات وأدعوه باستمرار ليحفظ والديّ من كل مكروه ويجمعني بهما من جديد

• هذا دليل سلامة قلبك وقوة إيمانك يا عمر.

وأما من كان اختباره خفيًا كالغنى والعافية ربما لا ينتبه أنّه في اختبار أصلًا، فينسى اللّه وينسى شكر النّعمة التي يعيشها، بل ربما قابل النّعمة بالتذمّر وطلب المزيد، أو أنفق ماله وأهدر صحته بطريقة حرام وأسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي، حتى يأتي اليوم الذي يسلبه اللّه النّعمة ليستيقظ من غفلته.

فالابتلاء أشكال، ولا بد لكلّ منا من خوض اختباره الخاصّ، ليعلم اللّه الصّابرين منا فيجزيهم بصبرهم جنات النّعيم، ويوفّيهم أجرهم يوم القيامة بلا حساب، هناك حيث الجمال الذي لا مثيل له والنّعمة التي لا تنقطع، حين ينسى كلٌّ منا آلامه وأحزانه وكأنها مرّت بطرفة عين.

وأما من استكبر وجحد وسخط على قضاء اللّه وقدره، ودفعه غضبه واعتراضه إلى البعد عن دين اللّه وربما الكفر به، غضب اللّه عليه وحاسبه على ذلك يوم القيامة بعذاب جهنم وبئس المصير.

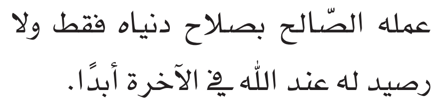
• اللّهم اجعلنا من الصّابرين الشّاكرين.

لكن هل نتعرض لهذه الاختبارات فقط لأننا مسلمين؟ لماذا نرى بعض الذين لا يؤمنون بوجود اللّه أصلًا أكثر سعادةً منّا؟

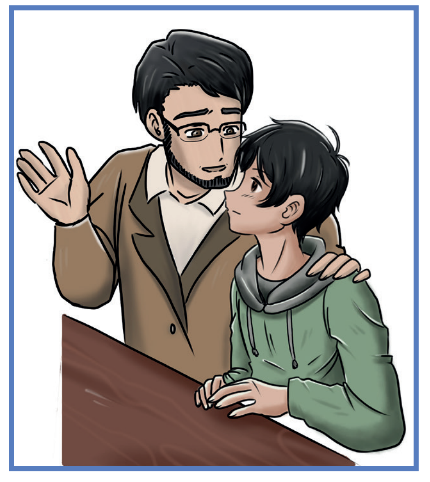
• لا يا عمر، من قال لك إن الملحدين وغيرهم من الذين لا يؤمنون بالله لا يتعرّضون للمصائب؟

لا تخدعك المظاهر ووسائل الإعلام، اذهب إلى المشافي وإلى دور العجزة والأيتام، اذهب إلى المحاكم لترى قضايا كبيرة أخلاقيّة واجتماعيّة وسلوكيّة تنتشر بينهم، شاهد التّلفاز لترى الأعاصير والزلازل في دولهم كما هي في دولنا تمامًا.

أليس الله ربّ كلّ العالمين؟ فالله ربّنا وربّهم، يرزقنا ويرزقهم رغم كفرهم، ويبتلينا ويبتليهم، وتجري سنن الدّنيا علينا وعليهم سواء، فأما من رضي بالله إلهًا معبودًا يَجْزِه الله حسنات كالجبال على كل عمل يبتغي به وجه الله، ويكفر عنه سيّئاته إن صبر وشكر واستغفر، وأما من اتّخذ إلهًا غير الله يستفيد من



عمله الصّالح بصلاح دنياه فقط ولا رصيد له عند الله في الآخرة أبدًا.



• فكيف يمكننا أن نعيش بسعادة إذًا؟ هل كل الدّنيا حزن وشقاء؟

• يتقلّب حال الإنسان في الدّنيا بين الشّدّة والرّخاء، والسّعادة والحزن، فالسّعادة الدّائمة في الجنّة فقط.

وها أنت اليوم تتذكر أيامًا ولحظات سعيدة مع والديك تتمنى لو أنها تعود رغم ما فيها من منغّصات، لكنك اليوم تعلمت أن السعادة في الدنيا لا تكتمل من كل النواحي والجهات، بل تبقى ناقصة يشوبها بعض الكدر، ليبقى الإنسان طامحًا للوصول للسعادة الأبدية في جنات النعيم

أما بالنسبة لسؤالك، فلا بد أن تعلم أن للسّعادة أسبابًا مادّية وأخرى روحيّة يا عمر.

السّعادة الماديّة تتحقّق عند وجود أسبابها من مال وحضارة وتطوّر بغضّ النّظر عن الدّين والمعتقد.

فيجدها كل من اجتهد لكسب المال وتمكّن من تأمين حاجاته الأساسية، فتهدأ نفسه وتطمئنّ ويجد فرصة للرّفاهية والسّفر والرّحلات، بل ويسعد أكثر عندما ينفق على الفقراء ويقيم المشاريع الخيريّة، ويجد في ذلك لذّة وسعادة لا تضاهى، في حين يقضي الفقير حياته بالحزن والهمّ والكدر، يركض خلف لقمته ولا يجد ثمن علاجه ونفقة عياله.

- لهذا تغلب الرّفاهية والاستقرار على سكان الدّول المتقدّمة؟

- نعم يا عمر، فمن يعيش في دولة متطوّرة، تنتشر فيها العدالة الاجتماعيّة، وتُؤمّن له حكومته احتياجاته الرّئيسيّة، سيكون أفضل حالًا ممن يعيش في دولة فقيرة لا يجد فيها فرص عمل، ولا تقدم الحكومات فيها خدمات لشعبها.

من ناحية أخرى، لاحظ أن المجتمع المتطوّر لا تهلكه الكوارث الصّغيرة، بل يتعافى سريعًا وينهض من جديد، ولديه قوّة تحميه من الغزو والحروب، في حين تبقى المجتمعات المتخلّفة علميًّا وحضاريًّا تئنّ لسنوات بعد كل كارثة وتبقى عرضة للاحتلال والغزو ونهب خيراتها.

- إذًا للحصول على السّعادة الماديّة عليّ أن أتعلم وأجتهد وأطوّر مهاراتي وأكسب المال، وأنهض بمجتمعي ليكون أكثر قوة وتماسكًا كذلك.

- نعم تمامًا

- فماذا عن السّعادة الروحيّة؟

- وأما أسباب السّعادة الرّوحيّة فللمؤمن فيها النّصيب الأكبر.

فالمؤمنون بالله تكسبهم الطّاعات انشراحًا في صدورهم وحلاوة لا يعرفها غيرهم، فهم يتقلّبون في سعادة القرب من الله وترتيل آياته، ويعيشون لذّة دعائه ومناجاته والشّوق للقائه. ويشعرهم قربهم من الله الملك القدّوس بالقوّة والأمن والاطمئنان.

- فكيف تفسّر حال بعض النّاس الذين يعانون الفقر والمرض، ويذوقون شدّة الحرّ وصقيع الشّتاء، رغم ذلك تجدهم يملكون من الرّضا والسّكينة ما يفتقده كثير من الأغنياء؟ هكذا كان أبي، وكم كنت أَعجب لحاله!

•هذا لأنّ مفهوم السّعادة يختلف عن مفهوم الرّضا يا عمر.

فالمؤمن المبتلى بمصيبة لا يكون سعيدًا، لكنه يرضى بقضاء اللّه وقدره، ويشكر اللّه على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى رغم مصيبته، ويعلم أن اللّه حكيم لا يقضي إلا بالخير، ويعلم أن هناك آخرة لا يضيع فيها صبره وأجره.

فيكون أكثر رضىً وطمأنينة ممن لا يؤمن بوجود اللّه، ولا يعلم سبب وجوده في الدّنيا، ويشعر أنّه وحيد ضعيف بلا سند في دنيا مليئة بالاختبارات والمصاعب، ويظن أنه قد خُلق عبثًا بلا معنى ولا هدف، ولا يؤمن بالآخرة أصلًا فيظن أن حقه ضائع وأن الظلم هو المسيطر، فأنّى لنفسه أن تهدأ وتطمئنّ؟

ولهذا نجد أن بعضهم يقدِمون على الانتحار عندما تضيق بهم الحياة.

•قرأت عن حدوث حالات انتحار متكرّرة بين الشّباب الملحدين فعلًا، وعجبت من مدى اليأس والضّيق الذي وصلوا له رغم ادّعائهم بأنهم أحرار في فكرهم وسلوكهم! فعجبت لحريّة قد تدفع صاحبها للانتحار!

بعد قليل خرج الجدّ محفوظ من غرفته مهمومًا فلا حلول تظهر في الأفق.

•ما الجديد يا أبي؟ هل وصلت لخطّة ما؟

•للأسف، كلّ اتّصالاتي باءت بالفشل، فأنا لم أجد شخصًا مؤهّلًا لمساعدتنا في تكساس، ما عليك فعله هو البحث عن زبون للمنزل، فلا بد من بيعه ودفع ثمنه للخاطفين.

•ألن نخبر الشّرطة؟

•بلى سنخبرهم بالتأكيد، عسى أن ينجحوا في حماية رامي، لكن علينا أن نتجهّز لكلّ الاحتمالات

- الزّبون جاهز، سأعطيه الجواب بالموافقة على البيع إذن.
- انتظر يا عمّ، خطرت لي فكرة!
- وما هي؟
- جارتنا الخالة ازدهار وزوجها يقيمان في تكساس، يملكان مصنع طلاء، وابنهما شابّ قويّ، غالبًا يمكنهم المساعدة.
- وهل تعرف الخالة الظّريفة ازدهار يا عمر؟
- نعم، وأعلم أنكم قمتم بمساعدتهم في الماضي عندما ضاقت بهم الدنيا.
- كيف نسيت الاتّصال بهما؟

هيا لنحيك معهم خطة لننقذ رامي.

- خطرت في بالي خطّة محكمة، تعالوا لأطلعكم عليها.

أسمعنا يا عمر.

- وبعد نقاشات وتخطيط انتهت الجلسة وعلامات البشر تعلو وجوههم.
- ستنجح الخطة إن شاء اللّه، كم أنت ذكيّ يا عمر، الحمد للّه على وجودك معنا في هذا الوقت العصيب.

سأتّصل بالشّرطة في تكساس لننسّق معًا، وسأبلغ رامي أن يلتزم الهدوء إن حصلت معه أحداث الخطّة، سيعود لنا سالمًا بإذن اللّه.

الفصل الرابع

هناك في تكساس كانت تجري تحضيرات وسيم للسفر بسعادة وفرح، بينما يعيش رامي أسوأ لحظات حياته.

- هيا اركب السّيّارة، سنتوجّه إلى المطار من الآن فالطّريق طويل.

خرج وسيم ومعه صديق له، ركبا في السّيارة مع رامي وانطلقوا في الطّريق، أصوات الموسيقى الصّاخبة تخرج من السّيارة، وأصوات الرّجلَين تعلو بفرح، يتراقصان على الأنغام يمينًا وشمالًا وكأنهما في طريقهما نحو الكنز، في حين كانت الشّرطة تراقب تحرّكاتهم عبر الأقمار الصّناعية، وبعد أن قطعوا مسافة محدّدة أخبرت الشّرطة الخالة ازدهار بالبدء بتنفيذ الخطّة.



وصل وسيم ومن معه طريقًا على مرتفع جبلي خارج المدينة، وفجأة وجدوا لافتة ضخمة تقطع الطّريق، مكتوب عليها "ممنوع المرور"

أوقفوا السّيارة بسرعة ليدلّ صوت الفرامل المرتفع على أن السّيارة المطلوبة قد وصلت.

- ماذا هناك؟ لماذا تقطعون الطّريق؟

- انتظر يا ولدي، أنا أصوّر فيديو بمناسبة تحقيق إنجاز عظيم في مصنعنا، فقد بدأنا بتصدير منتجاتنا للدول الأخرى، سنصبح مع الوقت الأفضل والأشهر على مستوى العالم، اضطررنا لقطع الطّريق مدة دقائق لتصوير احتفالنا بهذه الذكرى الرائعة، في هذا المكان ذو الإطلالة المتميزة، لن نؤخّركم كثيرًا.

أجابته عجوز في السّبعين من عمرها بصوتها المرتجف، وقد وضعت في منتصف الطّريق طاولة تظلّلها شجرة كبيرة، تتدلّى منها أشرطة ملوّنة، وعلى الطّاولة قالب من الحلوى وعصائر وقطع شوكولا فاخرة، وعلى الكرسيّ رجل عجوز يبدو أنه زوجها، وشابّ يقف قرب سيّارتهم يبدو أنه المصوّر، يدقّق النّظر في وجوه الرّكّاب ويتأكّد من وجود رامي.

ودون أن ينتبه وسيم وصاحبه غمز المصوّر والديه العجوزين ليكملا المسرحيّة.

- هيا يا زوجي لنمشي مرّة أخرى باتجاه الطّاولة لنعيد تصوير المشهد بعد أن أفسده هؤلاء بصوت الفرامل المزعج.

- هذه المرّة العاشرة والأخيرة التي أعيد فيها تصوير المشهد، تكسّرت قدماي وأنا أذهب وأعود، وكل مرة تختلقين حجة جديدة!

مرةً انكسر كعب حذائك، ومرةً سقط طقم أسنانك، ومرةً طريقة مشيتي لم تعجبك! وأنا أتضوّر جوعًا وأكاد أسقط من التّعب، ألم تدركي بعدُ أننا لم نعد شبابًا!؟

- كفاكما جدلًا، هيّا صوّروا بسرعة أو ابتعدوا من هنا فنحن متّجهون نحو المطار وسيفوتنا موعد الرّحلة.

- كفاك صراخًا أيها الشابّ الأنيق، لن أتحرّك قبل أن أصوّر مشهدًا يعجبني، اضطررت أن أبعد الطّاولة مرّات كثيرة لتمرّ السّيارات قبلك ولن أفعل ذلك مجدّدًا، اصبر وأعطيك قطعة كعك لتحتفل معنا في هذا الحدث الرائع.

بدأت العجوز وزوجها بالمشي بهدوء ممسكة بيده، وصلا إلى منتصف المسافة لتصرخ بأعلى صوتها:

- أوقف التصويييير

- ماذا هناك؟

- نسيت وضع الرموش المستعارة إنها في حقيبتي، تذكرتها الآن.

خرج الرّجلان من السّيارة واتجها بنزق وغضب نحو العجوز:

- ستبتعدان عن طريقنا وإلا سيكون هذا العيد يومكما الأخير، هل تفهمان هذا!؟

- لماذا تصرخ علينا بهذه الطريقة أيها المتعجرف؟ هل من الرّجولة الهجوم على عجوزين يحتفلان بإنجاز العمر!؟
خمس دقائق فقط لا أكثر.

اتجه العجوزان نحو السّيارة لإحضار الرموش المستعارة من الحقيبة، في هذه اللّحظة سحب المصوّر شريطاً مربوطًا بآلة التّصوير، فانقلبت براميل مليئة بالطّلاء الملوّن من أعلى الشّجرة على رأسَي وسيم وصديقه، أحمر وأخضر وأزرق ووردي، ليعلو صراخهما ويملأ المكان.

- ما هذا؟ ماذا يحصل؟ ما كلّ هذا الطّلاء؟

في هذه اللّحظة ركض المصوّر نحو سيّارتهما وأخرج منها رامي، واتجها إلى سيّارة العجوزين وانطلقوا بسرعة نحو المطار.

أخرجت العجوز رأسها من النافذة قائلة:

- هذه هديّة حفلنا المميّزة! الورديّ يليق بك أيها الوسيم.

فتح وسيم عينيه بصعوبة والطّلاء ينقط من ذقنه بلزوجة تشعره بالاشمئزاز، وقد امتزجت الألوان على وجهه لتضفي على الموقف طرافة وفكاهة لا تُنسى.

- إنهم يهربون، الحق بهم.

- الحق بهم أنت إن كنت تستطيع فتح عينك يا شاطر، فات الأوان وفشلت خطّتك، وخير ما تفعل أن تجد لنا طريقة ننظّف أنفسنا لنعود للمنزل.

وفي سيّارة الخالة ازدهار كانت الوجوه تلتفّ للوراء ليستمتعوا بمشاهدة اللّحظات الأخيرة لقوس القزح الذي صنعوه قبل أن يهربوا بفعلتهم مسرعين، وأصوات الضّحك لا تهدأ.

- الحمد لله لقد ابتعدنا عنهم، ستتولّى الشّرطة بقيّة المهمة، وسنصل إلى المطار قبل أن يستطيعا تنظيف الطّلاء، منظر مضحك جدًا جدًا، أكاد أموت من الضحك

هكذا كانت تتحدّث العجوز سعيدة بإنجازها الذي أنقذ رامي وأهله من مصيبة كبيرة.

- شكراً لكم جميعًا، شكرًا جزيلًا، لا أصدّق أنّني في أمان.

من أنت يا خالة؟ من أنت يا عمّ؟ أنا لم أعرفكم؟

- نحن عائلة مهاجرة من بلدة اللّوز يا رامي، كنا نعيش يومًا في فقر وحاجة، وساعدنا والدك وجدّك في أصعب أيّام حياتنا، هاجرنا إلى هنا وافتتحنا مصنع طلاء، ونحن اليوم نعيش بحال أفضل والحمد للّه، الشدّة لا تدوم.

أخبرنا جدّك عن المشكلة التي وقعت بها، وطلب منا المساعدة، وها نحن اليوم نحاول رد جميلهم الذي غمرونا به وقت الضّيق، وسكبنا على اللّصوص أجود أنواع الطّلاء، بأجمل الألوان وأكثرها لمعانًا، وبلا رائحة أيضًا!

- شكرًا لكم، أنقذتمونا من كارثة كبيرة، لن أنسى فضلكم.

- سنوصلك للمطار بينما نعود لنكمل حفلنا، وها هي الرّموش المستعارة جاهزة يا زوجي، وستحضر لي قالب حلوى جديد أليس كذلك؟

- بالتأكيد نجاح في عمل مهم وخطير كهذا يستحق الاحتفال، سأحضر قالب حلوى جديد وغداء لذيذ لزوجتي الظّريفة، كم اسمتعت بهذا المشهد، أفكر أن نعمل معًا بتصوير برنامج مقالب، سننجح به بكل تأكيد.

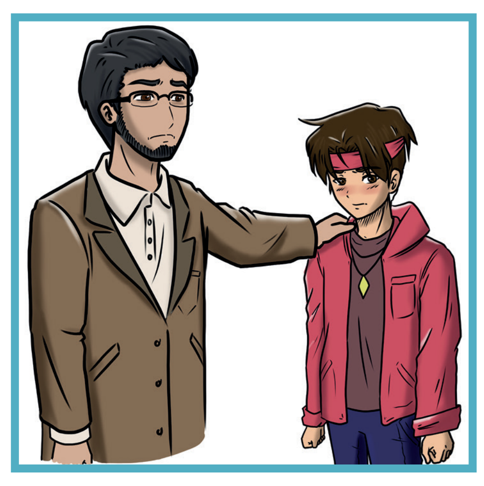
ارتفعت أصوات الضحك في السيّارة والسّعادة تغمرهم لنجاح خطّتهم، ولم تتوقّف التعليقات السّاخرة من الحال التي وصل لها وسيم وصديقه طول الطّريق.

وصل رامي إلى المطار، فاستقبلته الشّرطة لتطمئنّ على سلامته وتحذّره من العودة لهذا النادي غير المرخّص وممارسة هذه الألعاب مرة أخرى، وكتب تعهّدًا بذلك، في حين تكفّلت الشّرطة بإغلاق النادي وإعادة المال لأصحابه عندما يقبضون على وسيم.

توجّه رامي إلى بلدته وأهله، فرحًا بخلاصه من جزء من المشكلة، آملًا باستعادة أخته ليعود لبيته الهناء من جديد.

في البيت

- أهلًا يا رامي، حمدًا للّه على سلامتك.
- سامحني يا أبي، أمي، جدي، أخي، سامحوني أرجوكم، لن أعود لمثلها أبدًا إن شاء اللّه، وقد كتبت تعهّدًا في المطار يلزمني بعدم العودة لهذا النّادي بعد أن اكتشفت أنه غير مرخّص ولا يخضع للقانون.



• الحمد للّه على سلامتك يا بنيّ، أرجو أن يكون ما حصل درسًا مهمًّا لنا جميعًا.

لا تكمن المشكلة فقط في كون النّادي غير مرخّص يا رامي، بل المشكلة الأكبر أن المَيسر أو القِمار بحدّ ذاته محرّم في ديننا، ولا تجوز ممارسته حتى في النّوادي المرخّصة في الدول التي لا تطبق التّعاليم الإسلاميّة.

الضوابط الإسلاميّة يا بنيّ تحميك من الخداع والغشّ والرّذيلة، وتضبط شهواتك لتمنعك من ارتكاب ما يدنّس نفسك ويفسد دينك ودنياك، وتحميك من ضلال رفاق السّوء إن جعلتها المرجع الذي يحكم تصرّفاتك، فتفعل ما يرضي اللّه لا ما يرضي صاحبك، وتترك ما يغضب اللّه ولو كلّفك ذلك ابتعاد أصحابك عنك، وستجد في الحلال سعة كافية للمرح والسّعادة دون أن تضطر لارتكاب المحرّمات، فالحلال في ديننا أوسع من الحرام بكثير، لكنّ الشّيطان يزيّن الحرام ويشعرك بأنه أجمل رغم أنه قبيح، ويضيّق الحلال في عينيك ويشعرك أنه لا يكفي لتكون سعيدًا!

• نعم يا أبي فهمت هذا بالتّجربة المرّة، بعد أن رفضت كل النّصائح التي كانت تريد حمايتي من شرّ الشّيطان، كانت هذه المحنة درسًا قاسيًا لي، ولن أعود لارتكاب محرّم أبدًا إن شاء اللّه.

هل لديكم أخبار عن دانة؟

• ليس بعد يا ولدي، ألصقنا صورها في البلدة، وأخبرنا الشّرطة.

لكن الشّرطة بالكاد تساعد في إعادة تنظيم البلدة وإغاثة المشردين، علينا أن نعتمد على أنفسنا في البحث عنها.

- وماذا عن والديّ يا عم.
- آه يا عمر، سامحنا يا ولدي أشغلتنا همومنا عنك، طبعًا سنبحث عن والديك أيضًا وسنجدهم جميعًا إن شاء الله، هيا لنذهب ونبحث عنهم، لا وقت أمامنا لننتظر.

بحث الجميع بجدّ لأيّام متواصلة بلا فائدة، وكان الحزن يخيم على المنزل والقلق يكاد يقتلهم.

وبعد أيام

- لدي خبر محزن جديد، سنضطرّ لبيع المنزل بعد أن لحقت بي خسائر كبيرة بسبب الفيضان، خسرت أغلب ممتلكاتي ومصانعي ولا بد من إنقاذ العائلة بإصلاح المصانع والآلات التّالفة.

لذا سنبيع المنزل، ونصلح دارنا القديم في البلدة بجزء من ثمنه، ونبني مخبزًا قربه نعمل به جميعًا، تمامًا كما كنا قبل أن أصبح كبير التّجّار، ريثما أعيد تشغيل المصانع التي أملكها.

- هل سنصبح فقراء يا أبي؟
- الرّزّاق هو الله يا آدم، ومهما حصل فنحن أحسن حالًا من كثيرين فقدوا كل ما يملكون، وأصبحوا مشرّدين في الطّرقات بعد فقد ممتلكاتهم وأفراد من أسرهم.

سنبدأ العمل من الغد بإصلاح دارنا القديم وبناء المخبز وتجهيزه، هل أنتم جاهزون؟

- وأنا سأعمل معكم يا عمّ، إن لم تمانعوا طبعًا.

- أنت واحد منا يا عمر، طبعًا ستعمل معنا، فنحن لا نستغني عن قوّة عضلاتك وذكاء أفكارك.

لم تتمكن والدة دانة من تمالك نفسها، فأجهشت بالبكاء، وعصف الألم بكيانها من جديد

- سنذهب من هنا دون دانة؟ كيف سيحدث هذا؟

بعد أن غابت دانة عن المنزل بقيت حيّة بالعيش على ذكرياتها، هنا كانت تلعب بالدّمى، وهنا تسرّح شعرها الأشقر الجميل، وهناك تطير على ظهر شهباء ضاحكة كأنها ترى الحياة بألوانها التي حرمت منها.

لماذا تريدون أن تأخذوا مني حتى الذّكريات؟ لن أخرج من هنا دونها، هل تريدون أن أفقد ما بقي عندي من عقل لأعيش بقيّة حياتي كالمجانين؟

وإن عادت فلم تجدنا؟ كيف ستعلم مكاننا؟

- آه يا زوجتي الحبيبة، لا خيار أمامنا، لا خيار

أما دانة فنستودعها اللّه، سأترك ورقة معلقة على جدار المنزل في الخارج ليعلم من يأتي بدانة عنواننا الجديد، كما أنّنا لن نتوقّف عن البحث عنها أبدًا، هل تظنّين أن الألم في قلبي أقلّ منه في قلبك؟ هي ابنتي وفرحتي وسعادتي، لن أترك البحث عنها حتى أجدها مهما طال الزمن.

ساد الصّمت المكان، وأطرق الجميع بحزن أمام بؤس الموقف وشدّته، ولم يقطع الصمت إلا سؤال عمر الذي لا يتمكّن من كتم أسئلته أبدًا.

- لماذا يبتلي اللّه الأطفال الصّغار يا عمّي؟ فدانة المسكينة لا ترى منذ أن خرجت إلى الدّنيا، وها هي اليوم تائهة تذوق الألم والخوف والحرمان، فكيف لطفل لا ذنب له بعد أن يذوق كل هذا الألم؟!
- يا عمر، اللّه لطيف بعباده، واللّه لا يظلم مثقال ذرّة

تؤمن دانة أن من يفقد عينيه في الدنيا يعوّضه اللّه بأجمل منها يوم القيامة، فرضيت وصبرت وشكرت اللّه، واللّه يجزي صبرها بالحسنات ورفع الدّرجات، ونؤمن أن اللّه ابتلانا وإياها بهذا ليختبر صبرنا وإيماننا، فرضينا بقضاء اللّه شاكرين، وقررنا أن نعلّمها كيف تتغلّب على هذه الصّعوبات، وكيف تعتمد على نفسها في أغلب شؤونها، وقد أعطاها اللّه ذكاءً وفطنةً لافتةً تعوّضها عن خسارة عينيها أغلب الأحيان، فاللّه رحيم، يبتلي عباده ويعينهم لتجاوز ابتلائهم في الوقت نفسه.

وإني أظن أن هذه التحدّيات التي تمرّ بها والتي تدفعها لتنمية مهاراتها وتطوير نفسها باستمرار ستكون سببًا في تميّزها على كثير من المبصرين الذين يقضون حياتهم باللّهو واللّعب.

وفقدانها اليوم آلمني كثيرًا، وأشعر بالذنب لأننا تركناها هنا وسافرنا دونها، ولم نفعل ذلك إلا مضطرّين. لكنني أؤمن أن اللّه يحميها ويحفظها، وأن اللّه أرحم بها منا، فاللّه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

بدأت العائلة بالتجهيز للانتقال للدّار القديمة في البلدة، وبعد جهود مستمرةٍ لأيام كان كل شيء جاهزًا.

انتقلت العائلة الغنيّة لبيت صغير في البلدة من غرفتين فقط، لا فرش وثيرة ولا حديقة غناء ولا اصطبل خيول، ولا خادمة ولا أجهزة إلكترونية حديثة، أخذ كلٌّ منهم ممتلكاته الخاصة فقط للبيت القديم، واشترك الجد والأبناء في غرفة واحدة بعد أن كان لكل منهم غرفته.

وفي الحديقة الخلفيّة تم بناء المخبز، نقلوا إليه المعدّات وأكياس الطّحين، وبدأ الجميع العمل.

- هيا يا شباب، ستعملون معي يوميّا، علينا أن نصنع الكثير من الخبز، نخصّص جزءًا منها للبيع، ونترك قسمًا لسلّة الخبز، وضعناها عند مدخل حيّنا الجديد.

علينا أن نجمع المال لدفعه لتاجر الخيول لنستعيد شهباء قبل أن ينقضي الشّهر.

- ولماذا نعيد شهباء يا جدي إن لم تعد دانة؟
- سأعيد شهباء لتستقبل دانة عندما تعود قريبًا إن شاء الله، أشعر أن هذا قريب جدًّا وأرجو أن لا يخيب رجائي.

وعمل الجميع بجدٍ ونشاط، وضعوا سلة الخبز أمام حيّهم في البلدة، يملؤونها بالخبز مساءً كما اعتاد الجدّ، فيجتمع الكثير من الناس يوميًّا للحصول على الخبز، ولا يملكون ثمنًا له إلا الدّعاء لهذه العائلة بالخير والبركة.

وذات يوم ازدحم الناس أمام السلّة وتقاسموا ما بها من خبز حتى فرغت، فأحضر عمر دفعة أخرى ليملأ بها السلّة، فقال له أحدهم:

- لو أنّك أحضرت هذا الخبز قبل لحظات، كانت امرأة تناشد الناس وتقول: أرجوكم أعطوني رغيف خبز فقط فعندي بنت صغيرة مكفوفة لم تتذوّق الطعام منذ الأمس، وانصرفت باكية.
- ماذا تقول؟ بنت مكفوفة؟ أين هي تلك المرأة؟

ذهبت من هنا، لا أعلم أين تسكن لكنها ذهبت باتّجاه الجبل الشرقي.

- هل أعطاها أحد خبزًا؟
- لا لم تحصل على أي طعام، المسكينة.

ركض عمر بسرعة إلى البيت صارخًا:

عندي خبر مهم يا آدم، امرأة كانت تبحث عن خبز لفتاة مكفوفة كانت هنا قبل قليل.

- وأين هي الآن؟
- لا أعلم، ذهبت باتّجاه الجبل الشرقي. هيا لنبحث عنها.

وركض الجميع باتجاه الجبل باحثين عن تلك المرأة، يصرخون في كل مكان دانة، دانة، هل تسمعيننا؟

لكنهم كالعادة، عادوا بخفّي حُنين.

الفصل الخامس

وفي البيت بعد تبادل الهموم والأحزان، وافق الجميع على اقتراح الجدّ:

- الحمد للّه، عاد لنا الأمل من جديد، علمنا أنها على قيد الحياة على الأقلّ، فأنا لا أعلم وجود بنت صغيرة مكفوفة غيرها في البلدة.

ويبدو أن اللّه سخّر لها امرأة حنون تهتمّ بها والحمد للّه، علينا أن نقف كلّ يوم قرب سلّة الخبز لنسأل كل من يأتي لأخذ الخبز عن فتاة مكفوفة، وهذه مهمتك يا رامي.

- أمرك يا جدي.

ازدحمت الهموم في رأس والد دانة، فلا يدري هل عليه أن يفرح بخبر وجود ابنته على قيد الحياة؟ أم يبكي حزنًا لحالها وألم فقدها وصعوبة إيجادها؟

- الحمد للّه، هي على قيد الحياة، لكنّها جائعة، ابنتي الصغيرة تنام جائعة! أي ألم أشدّ فتكًا في قلوب الآباء من هذا!؟ أي عجز هذا الذي يكبّل يديّ!؟

- استعن باللّه يا بنيّ، ستعود لك ابنتك سالمة إن شاء اللّه.

وضعت الأم مائدة العشاء ونادت بالجميع:

- هيا بنا لتناول العشاء.

- ما هذا يا أمّي؟ حساء العدس؟ هل تريدين مني أن أتناول هذا الطّعام على العشاء أيضًا؟ سئمت من أكله يوميّاً ولا يمكنني أكل المزيد!

- يمكنك النوم جائعًا، هذا هو الخيار الثّاني المتاح يا رامي.

- لماذا حصل بنا كلّ هذا؟ كنت أجلس على المائدة وأحتار بأيّ الأصناف أبدأ، لماذا يحصل كل هذا؟ يوم أتعرض للاختطاف، ويوم نترك منزلنا الفخم، أختي ضائعة لا نعلم عنها شيئًا، ووصلنا لدرجة أن نأكل العدس ثلاث مرّات باليوم!!

ثمّ إنّي لا أرى مضاعفة الأجر الذي وعدنا اللّه به يا جدي، ففي حين تنفق وأبي على المحتاجين منذ سنوات ها نحن اليوم لا نجد إلّا العدس!

- إن كنت لا تحب العدس فهذا لا يعني أنه طعام سيء، بل هو من أكثر الأطعمة فائدة للإنسان، وهو نعمة ورزق كبير كذلك.

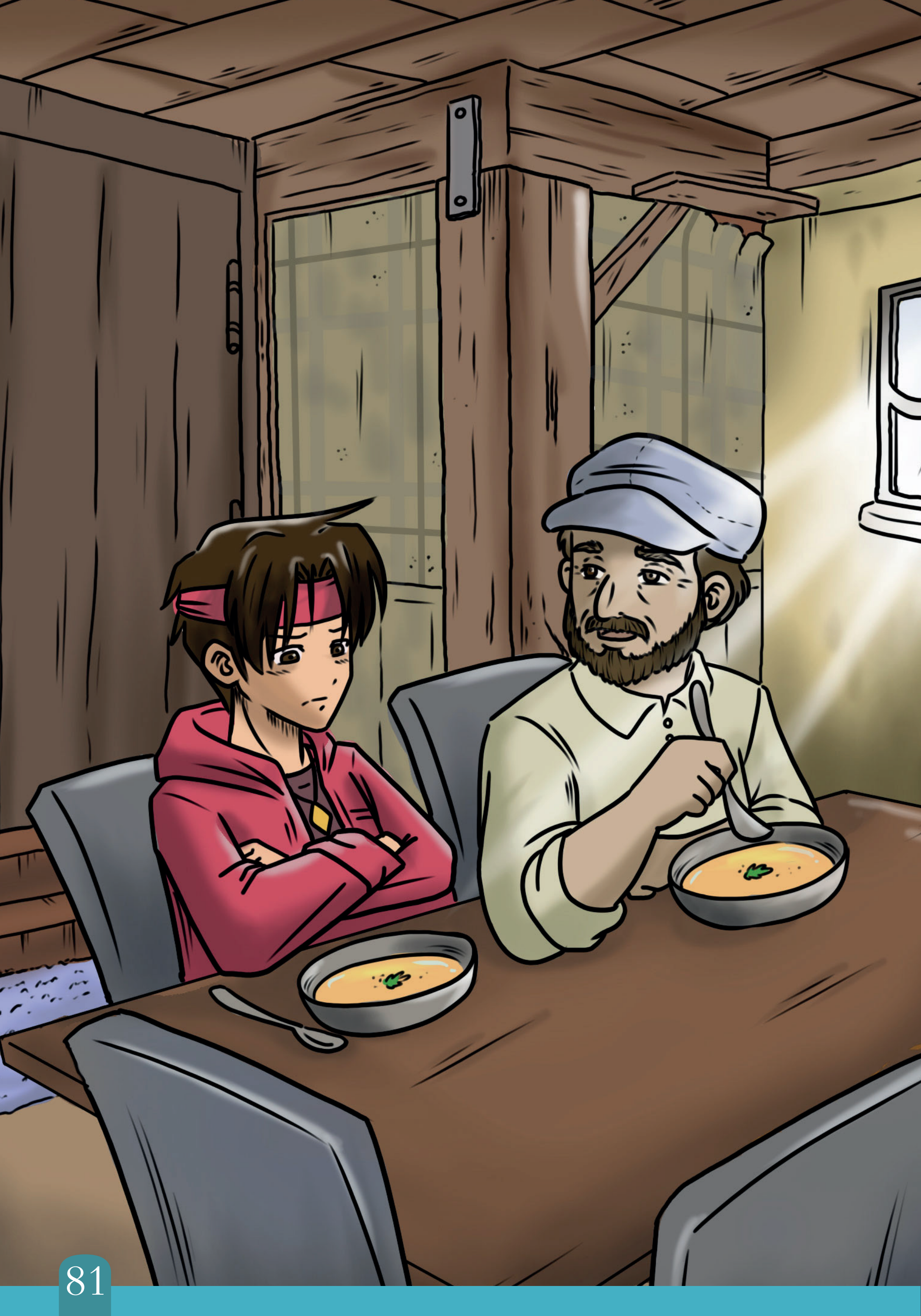
ووقوعنا في الشّدّة يومًا لا ينبغي أن ينسينا أيّامًا من العافية والرّخاء!

يا بني، كنت في أوّل شبابي الخبّاز البسيط محفوظ، فدارت الدّنيا وصرت والد كبير التّجّار، والشّاكر من لا ينسى سنوات من النّعمة في يوم الشدّة، فيجحد نعمة اللّه وينكرها كأنّه لم يرها قطّ!

الدّنيا ليست دار عدل بل دار ابتلاء، وهذه سنّة الحياة الدنيا، واللّه تعالى وعدنا أنه يجزي الشّاكرين، ويجزي المتصدقين، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

لكن اللّه لم يخبرنا بالطّريقة التي يجزينا بها الأجر في الدّنيا بالتّحديد، فاللّه تعالى لم يقل إنّك عندما تتصدّق بدينار يعيده لك اثنين في اليوم التّالي، فكرم اللّه أوسع من أن يقتصر على ردّ جزاء الصّدقة بالمزيد من المال.

فربّما تصدقت بصدقة أو قدّمت معروفًا لوجه اللّه، فجزاك اللّه به بطريقة لا تدركها، ربّما صرف عنك بها شرًّا كبيرًا، أو رزقك صحّة وعافية، أو هيّأ لك بها أسباب الصّلاح والهدى، وربما تركك تعاني بعض الشّدّة لأن فيها تكفيرًا لسيّئاتك وتدفعك للتّوبة والرّجوع إلى اللّه وتغيير سلوكك من الضّياع إلى الهدى، فلولا المصيبة التي حلّت بك ما أدركت خطأك يا رامي، وربما أثابك اللّه مالًا مضاعفًا تراه بعينيك فعلًا، أو ادّخر لك ثوابك كاملًا ليوم القيامة، ويالسعدك حين ترى موازينك وقد ثقلت بالحسنات!



- هل تعني أن من يموتون بالكوارث كوالديّ لا يحبّهم اللّه؟ فهو لم يصرف عنهم هذا الشرّ كما ترى ؟!

- لا يا عمر، لم أقصد هذا أبدًا، وإني لازلت أرجو أن تجد والديك بخير وعافية.

اسمعني جيّدًا، هناك قسم من الابتلاءات تحصل بفعل البشر، فترى الحروب التي يفعلها القادة المجرمون، والأمراض التي يسبّبها الّذين يلوّثون البيئة، والمشكلات التي يصنعها المنحرفون فيفسدون في الأرض بطيشهم وسوء سلوكهم كلّها مصائب من صنع البشر، لا يرضاها اللّه طبعًا وسيعاقب مرتكبيها، وحذرنا مرارًا من الوقوع بها .

يقول تعالى: (أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم)

والفيضان الذي حصل ربما كان سببه إهمال البشر في تدعيم السّدّ والحفاظ على قوّته، فكان إهمال بضعة موظفين كفيل بكارثة أهلكت المئات، فهل نقول إن اللّه عذّب هؤلاء الناس المتضرّرين أم أن ظلم البشر وإهمالهم قد أضرّ بهم؟

أو ربما كان الفيضان قدرًا من عند اللّه حصل رغم كل التدابير التي اتّخذها الإنسان للحيلولة دونه.

إذًا لا يمكننا الجزم بسبب حدوث الفيضان مطلقًا .

- فكيف أعرف إن كان اللّه يعاقبنا بذنوبنا أم يبتلينا ليغفر لنا بصبرنا؟

- لا يمكننا الجزم كذلك في كون المصيبة عقوبة أم رحمة بشكل عامّ!

فاللّه أخبرنا في كتابه عن قوم نوح وعن فرعون وجنده الذين غرقوا لكفرهم، وأخبرنا عن أقوام تدمّرت مدنهم بالرّيح والعواصف والصّيحة وغيرها من ألوان العذاب الذي أنزله اللّه على من كفر واستكبر.

لكننا اليوم نعيش هذه الدّنيا وقد انقطع الوحي من السّماء فلا نعلم السّبب خلف نزول مصيبة أو كارثة، هل هو تخريب البشر وإهمالهم؟ أم ظلم النّاس لأنفسهم بالمعاصي والذنوب؟ أم ليكون عبرة وموعظة لمن بقي من النّاس فيعلموا أنّ قدرة اللّه أعظم من تدبيرهم، أم لشيء آخر لا يعلمه إلا اللّه؟

- كيف تطمئن نفسي على من فقدت من أقارب وأصحاب إذًا؟
- مهما كان سبب المصيبة لا يمكننا أن نحكم على كلّ من مات أو تشرّد بشكل عامّ أن اللّه انتقم منهم، فربما كان أحدهم صالحًا وكان هذا الابتلاء كفّارة لذنوبه وطريقه إلى الجنة، وربما كان الآخر كافرًا مستكبرًا محاربًا لدين اللّه وبهذا الفيضان أراح اللّه الصّالحين من شره.

فاللّه يحاسب الناس أفرادًا كل نفس بما كسبت رهينة، ولا تزر وازرة وزر أخرى، حتّى وإن ماتوا جميعًا بالكارثة نفسها فإن اللّه يحاسب كلًّا منهم بعمله.

- أسأل اللّه أن يغفر لوالديّ إن كانا من الأموات، وأن يجمعني بهم قريبًا إن كانا أحياء، لقد اطمأنّ قلبي والحمد للّه.
- هيّا إذًا، أكملوا طعامكم وكلّ منكم إلى فراشه.

كان اليوم التّالي كبقية الأيّام، تمرّ حزينة متعِبة شاقّة، نتيجة للعمل في المخبز والبحث عن دانة ووالدي عمر، مرّ شهر على الكارثة وبدأت البلدة تتعافى من آثارها.

افتتحت بعض المحالّ أبوابها من جديد، أزيل الرّكام من الشّوارع، افتتحت المشافي ومحطّات الحافلات ومركز الشّرطة وغيرها من مؤسّسات خدمة المجتمع، وقريبًا جدًّا ستفتح المدارس أبوابها.

وفي أحد الأيّام عاد أبو رامي إلى المنزل حاملًا بعض الفطائر لتناولها مع عائلته الصّغيرة وضيفهم عمر الذي أصبح جزءًا من هذه العائلة.

- انظروا ماذا أحضرت لكم، فطائر لم تتذوّقوا مثلها أبدًا.
- ياه، رائحتها ملأت المنزل!
- هل التقطها أنفك بسرعة يا آدم الأكول!
- ما هذا يا عمّ؟! من أين أتيت بهذه الفطائر؟!
- مالك يا عمر؟ لماذا تتحدث بهذه الطّريقة؟ ألم تعجبك؟
- بلى أعجبتني، لأنها فطائر أمّي، أنا متأكّد تمامًا من هذا!
- ماذا تقول؟ وكيف عرفت هذا؟

- إنها نفس فطائر أمي التي تصنعها بالضّبط، نفس الشّكل والرّائحة، وغالبًا نفس الطّعم، من أين اشتريتها؟
- اشتريتها من محلّ الفطائر في آخر سوق البلدة.
- سأذهب لأسأله عمّن صنع هذه الفطائر، عن إذنكم.
- انتظر يا عمر، تناول طعامك.
- لا يمكنني الانتظار، ربما كانت هذه الفطائر دليلي للوصول لأمي.
- خذ يا آدم بعض الفطائر واذهب مع عمر، اتصلا بنا عند حصول جديد.
- حسنًا يا أبي، هيّا يا عمر.

وانطلق عمر وآدم نحو سوق البلدة راكضين بسرعة البرق، وصلا محلّ الفطائر وتوجّها نحو البائع.

- السّلام عليكم، اشترى أبي من عندكم فطائر قبل قليل، هل يمكنني أن أعرف من يصنع لكم الفطائر؟
- تصنعها امرأة فقيرة تسكن الجبل الشرقيّ بعد أن تهدّم منزلها.
- هل تعرف اسمها؟
- لا، لا أعرف، كان يجب أن تحضر كميّة أخرى في المساء كالعادة لكنها لم تأت، لا أعلم ما الذي أخّرها فهي لا تخلف مواعيدها عادةً.
- يا إلهي ربما تكون في ورطة!

سأذهب للجبل الشرقيّ يا آدم، ارجع للمنزل حتى لا يقلق أهلك عليك.

- سأذهب معك يا عمر.
- لا يمكنك ذلك، ربما تأخّرت للغد صباحًا، عليك أن ترجع لتعمل في المخبز، لا يمكننا أن نتغيّب معًا حتى لا يتعطل العمل.
- خذ هاتفي معك، اتصل بنا لو احتجت مساعدة.

وخذ معك حبالًا ومصباحًا وعصى، انتبه لنفسك من الحيوانات المفترسة في الجبل.

- لا تقلق، سأكون بخير إن شاء اللّه.

توجّه عمر مسرعًا نحو الجبل الشرقيّ بعد أن اشترى الأدوات التي نصحه آدم باقتنائها، جبل كبير جدًّا تغطّيه غابات كثيفة، وبدأ البحث عما يدل على وجود بشر.

وفي البيت

- لقد ذهب عمر للبحث عن والدته في الجبل الشرقيّ، بينما أرسلني إلى هنا حتى لا يتعطل العمل في المخبز.
- ما كان ينبغي أن تتركه بمفرده في هذا اللّيل، كيف فعلت هذا؟
- لم أشأ تركه لكنه ألحّ عليّ بذلك يا جدّي، أعطيته هاتفي لنتصل به بين الحين والآخر ونطمئنّ عليه.
- ولد طيّب، حفظه اللّه من كل مكروه.

انتصف اللّيل ولم يعد عمر بعد، بقي الجدّ محفوظ ساهرًا بانتظاره، يتّصل كلّ حين للاطمئنان عليه.

.فجأة، رنّ هاتفه ليجد رقمًا لشخص غريب يتصل به

- من هذا المتصل في منتصف الليل؟ اللهم اجعله خيرًا!

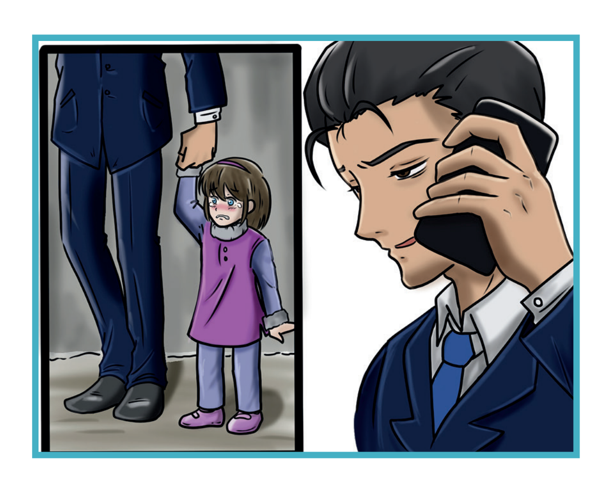
ألو من معي؟

- لو أردت أن ترى دانة مرّة أخرى فأحضر أموالي التي يجب عليكم دفعها بعد خسارة رامي.

أنا وسيم، أتيت إليكم من تكساس، لن أتنازل عن حقّي هل تفهم؟

- مجرم جبان، ماذا تفعل خارج السّجن؟ وكيف وصلت لدانة؟

- أنا أذكى بكثير من أن تقبض عليّ الشّرطة، أفلتُّ منهم يوم هرب رامي وها قد جئتكم بطريقتي الخاصّة رغم أنفكم وأنف الشرطة، أنا هنا كما اتّفقنا.



ولا يهمّك كيف وصلت لدانة، المهمّ أنّني قد وصلت، وإن أردتها سالمة ترسل إليّ المال مع رامي فقط، يلقاني قبل شروق الشّمس تحت شجرة البلّوط الكبيرة قرب الشّلال في الجبل الشّرقيّ، إن علمت الشرطة بالأمر سأعطيكم دانة جثّة هامدة، بالتأكيد لا ترغب بهذا.

أغلق وسيم الهاتف، بينما اشتعلت النّيران في قلب الجدّ محفوظ، وبدأ الدّم يغلي في عروقه.

- مجرم وضيع، تتجرأ على طفلة صغيرة لتحصل على المال، يا ربّ ساعدنا.

أيقظ الجدّ كل من في المنزل، وأخبرهم بما حدث.

- ماذا سنفعل الآن يا والدي؟
- أحضر ثمن منزلك الذي بعته وهيا بنا إلى الجبل.
- لم يبق منه إلا ربعه، أنفقت أغلبه في ترميم البيت وبناء المخبز وإصلاح المصانع.

وتذكر آدم صديقه عمر الذي يتجوّل قريبًا من مكان هؤلاء المجرمين .

- دعوني أتصل بعمر، إنه في الجبل الشرقيّ أيضًا، لنحذّره من اللّصوص حتى لا يؤذوه.
- ألو عمر، خاطفو رامي في تكساس قدموا إلى بلدة اللّوز، وجدوا دانة واختطفوها في الجبل الشرقيّ، يريدون أن ندفع لهم مقابل إطلاق سراحها، احذر حتى لا تقع بين أيديهم.

- ماذا تقول؟ كيف وجدوا دانة قبلنا؟

ومماذا ستفعلون؟

- لا نعلم، نحن لا نملك المال الكافي، وأعطونا فرصة إلى شروق الشّمس فقط.
- لا بد أن نجد حلًا.

سكت عمر لدقائق وقال لهم:

- اسمعوا جيّدًا ما أقول

واستمرّ الحديث لساعة كاملة خطّط فيها عمر بذكاء لإنقاذ دانة، واتّفقوا على كلّ شيء بالتّفصيل.

- والآن هيا ليقم كل منا بدوره، السّلام عليكم.
- رافقتك السّلامة يا عمر. وعليكم السّلام.

وعمّ الهدوء المكان، جلس الجميع مكتوفي الأيدي بعد أن أبلغوا الشرطة ليقوموا بدورهم كذلك، وجلسوا بانتظار بزوغ الفجر.

المال الذي يملكونه لا يكفي، ووصول دانة إليهم بسلام مرهون بنجاح خطّة عمر.

- لنقم جميعًا نصلّي ركعتين ونسأل اللّه السّلامة والتوفيق.
- نعم يا جدّي، فلا ينجينا من مصيبتنا إلا اللّه

في هذا الوقت كان عمر منهمكًا بالتّحضير لخطة إنقاذ دانة، فركض باحثًا بين الرّكام الذي رماه أهل بلدة اللّوز على سفح الجبل عن أدوات تساعده في تنفيذ خطّته.

- أخشاب، دلو، إنه مكسور، لا بأس سَيَفي بالغرض إن قمت بربطه بهذا الشّريط، قطعة حديد تصلح للحفر.. إنها حادّة من كل جوانبها، كيف سأمسك بها؟ لا بأس سأتدبّر أمري، لا وقت لديّ للبحث عن غيرها.

الحبال والمصباح معي أحضرتهم من البلدة، كانت وصيتك في مكانها يا آدم.

كلّ شيء أصبح جاهزًا للعمل، سأنطلق إلى شجرة البلّوط قرب الشلال، بالكاد ألحق تجهيز الخطّة.

الفصل السادس



بدأ عمر بالعمل وصورة دانة البريئة لا تفارق مخيّلته، شعر بعظم المهمّة الملقاة على عاتقه فقاوم التّعب والإرهاق، ساعده صوت الشّلال الذي يسقط من علوّ شاهق قرب الشّجرة على إخفاء ما يصدر من ضجيج.

وقبل طلوع الفجر تمكن من إنجاز العمل وحده، كيف لا وهو الفتى الذي صنعت منه شدّة الحياة رجلًا قبل أوانه، فعاش طفولته وكبر بين الحقول والبساتين والجبال.

كانت قسوة الحياة التي طالما تذمّر منها سبب بحثه المستمر عن الحلول للمشكلات التي تواجهه، فازدادت خبرته ونما عقله، واشتدّ ساعده فلم يبالي بالجروح التي مزّقت يديه نتيجة الحفر بقطعة الحديد، وكان قادرًا على تحمّل الألم، فالتجارب الصّعبة التي مرّ بها في حياته أهّلته لينجح في أصعب المهمات.

قاربت الشّمس على الشّروق. وانطلق أفراد العائلة للمكان الذي اتّفقوا عليه مع وسيم.

أخذ رامي حقيبة المال التي لا تحوي إلا على جزء من المبلغ المطلوب، واتجه نحو الشّلال في الجبل الشّرقيّ، وقف تحت شجرة البلّوط الضّخمة منتظرًا وصول وسيم.

دقائق قليلة ورأى وسيم ممسكًا بأخته دانة بيمينه ومسدسه بشماله، يمشي بجانبه صديقه متبخترًا متباهيًا بقدرتهما على اعتقال بنت صغيرة.

- أنت هنا إذًا يا رامي، هل تظنّ أنك قد نجوت منا؟ هل تظنّ أننا لن نصل إليك؟ هيا أحضر المال وضعه أمامنا على الأرض.
- لن أترك الحقيبة حتى ترسلوا أختي إليّ.
- ضع الحقيبة على الأرض وإلا أطلقت النار.
- إن قتلتم أختي لن تحصلوا إلا على السجن، اتركوها تأتي إليّ وأنا أمامكم، لو وجدتموني أهرب بالمال يمكنكم قتلي حينها.

تهامس الرّجلان لدقيقتين، وقررا إرسال دانة لأخيها.

- هيا اذهبي يا فتاة.

مشت دانة لثلاثة أمتار فقط، ليقفز بعدها عمر من أعلى الشّجرة ممسكًا بحبل مربوط فيها، وقد ثبّت على رجليه لوحين كبيرين من الخشب، ودفعهما برجليه بقوّة وسرعة كبيرة، ليسقطا في حفرة موجودة بجانبهما مملوءة بالطين، مغطّاة بأعواد الخشب وأوراق الشجر.

في غمضة عين وجد الرجلان نفسيهما في حمّام طين تنبعث منه روائح العفن والقمامة، وقبل أن يتمكّنا من الخروج كانت الشّرطة في انتظارهما خارج الحفرة.

وقف عمر أعلى الحفرة يضحك من منظرهما المقرف

- لا أدري أي الرّجال أنتما؟ قدمت لكما الخالة ازدهار أجود أنواع الطّلاء بأجمل الألوان فلم يعجبكما، فاضطررنا لتجربة الطّين الممزوج ببعض القمامة، فهذا ما تمكّنت من جمعه خلال وقت قصير، لو أخبرتماني بقدومكما قبل فترة أطول لجّهزت لكما أفضل منه، على الأقل طين بلا قمامة!

أجابه وسيم بحدّة وغضب:

- ولد سيّئ مزعج، سأنتقم منك يومًا ما.

سحبهما الشّرطيّ من الحفرة بقوّة قائلًا:

- هيّا إلى السّجن، عندنا حمّام ساخن هناك، سيعجبكما بلا شكّ!



خرج الجدّ محفوظ ووالدي دانة وأخيها من خلف الأشجار، نظروا إلى دانة التي تمسك برامي خائفة مذعورة وركضوا نحوها سعداء بوجودها بينهم بعد طول غياب.

- دانة حبيبتي
- أمي، أبي، جدي، اشتقت لكم كثيرًا.

جثت أمها على ركبتيها واحتضنتها بشدّة، وانهالت عليها بسيل من القبلات، غلبتها دموع الفرح بعودة ابنتها الصّغيرة بعد أن كادت تفقد الأمل من رجوعها إليها مرّة أخرى، شدّت ذراعيها على صغيرتها التي كانت تمسك بها بقوّة لتشعر بالأمان ويزول عنها الذّعر والخوف، ولتطفئ حرارة شوقها لأمها بعد فراق مرير.

مسحت أمها رأسها بحنان وحبّ وهمست في أذنيها:

- الحمد لله على سلامتك يا ابنتي، ما أسعدني برجوعك سالمة إلينا، كأنّني في حلم جميل ولا أريد أن أستيقظ منه أبدًا، ابنتي قرّة عيني عادت لي، الحمد لله الّذي نجّاك من هؤلاء المجرمين.
- أنا خائفة جدًّا يا أمّي، خائفة جدًّا، لا تتركوني مرّة أخرى أرجوكم.
- لن نتركك بعد اليوم أبدًا يا صغيرتي، لن نتركك أبدًا.



احتضنها أبوها بحرارة وحبّ سعيدًا بعودتها، حملها من ذراعيها ليرميها للأعلى فتطير ضاحكة مسرورة وتعود لحضنه الدافئ من جديد، ليضفي صدى ضحكاتها على المكان حياةً وجمالًا وروعة، فأزهرت الدنيا في قلوبهم بعد جفاف، وانفرجت أساريرهم بعد طول كآبة وحزن.

- ابنتي دانة، حبيبة قلبي، زال البأس وانتهت الشّدّة، الحمد للّه الذي أعادك لنا سالمة معافاة، أنت زينة حياتي وحبيبة قلبي، لا أراني اللّه فيك مكروهًا بعد اليوم
- وأنا متى دوري؟ تعالي إلى جدك الذي يحبك أكثر منهما يا دانة.

ضحك الجميع بسعادة وفرح وكأنّ غيمة سوداء انقشعت من فوقهم، وكأن الشّمس قد أشرقت بعد غياب.

بينما كان عمر ينظر من بعيد لجمال المشهد ودفئ المشاعر، ترقرقت الدموع في عينيه، وفاض قلبه بالرّجاء، يدعو اللّه بصمت أن يعيش هو الآخر لحظات سعادة بلقاء والديه عن قريب.

قاطع صمته العميق صوت دانة قائلة:

- أبي، جدي، أخوتي، ساعدوا خالتي أرجوكم.
- من هي خالتك؟ وأين هي؟
- خالتي الطيّبة التي كانت تهتمّ بي، هناك في كهف قرب الشّلّال قد ربطها اللّصوص بعد أن ضربوها بقسوة وعنف، أرجوكم ساعدوها.
- ماذا؟ هيا لننقذها بسرعة

ركض عمر ورامي وآدم نحو الكهف مسرعين، دخلوا إليه ليجدوا امرأة مرمية في زاوية الكهف تئنّ من الألم، تنادي بصوت خافت: دانة، اتركوا دانة.

كانت تظهر عليها آثار الضّرب الشّديد، الكدمات تملأ وجهها والدّم ينزف من أنفها، كبّلوا يديها بحبال غليظة، ووضعوا رباطًا على عينيها، ركض آدم نحوها وبدأ بفك الحبال قائلاً:

- حمدًا للّه على سلامتك يا خالة، سنفكّ الحبال بسرعة، الحمد للّه تمكّنا من القبض على اللّصوص وإنقاذ دانة.
- الحمد للّه، إذًا دانة بخير.
- نعم بخير، سأزيل الرّباط عن وجهك.

فكّ آدم الرّباط عن وجهها، ليقف عمر أمامها مذهولًا، آثار الضّرب على وجهها تخفي تحتها ملامح يعرفها جيدًا من قبل، دقّق بها مليًّا في حين كانت تنظر إليه بدهشة وكأنها تشاهد حلمًا جميلًا، كانت قد فقدت الأمل من حدوثه يومًا ما.

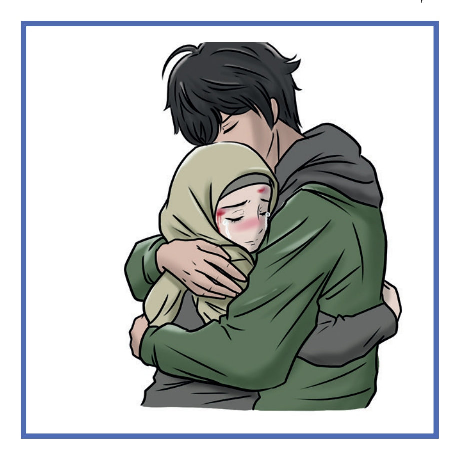
- أمي!! أنت أمي! هل يعقل هذا!؟
- عمر، ولدي أنت حيّ والحمد للّه!

ارتمى عمر في حضن أمه باكيًا، ليفرغ على صدرها حزن أيّام طويلة من الفقد والشّوق والألم.

- الحمد للّه الذي جمعنا يا أمي، الحمد للّه على فضله، ما أسعدني بلقائك بعد طول غياب، الحمد للّه الذي أكرمني بفضله

حتضنته أمه بشدة ودموعها تنهمر على وجهه الجميل، سعيدة بتحقّق أملها واستجابة دعائها من اللّه، كانت يداها تمسح شعره المليء بالغبار والتراب، تمسح وجهه وعينيه كأنها تريد أن تطمئن على سلامة كل جزء من جسده بعد أن فقدته في فيضان مدمر.

- بنيّ عمر، هل أنت بخير؟ حبيب قلبي، كم أنا سعيدة بلقائك.



- اطمئني يا أمي، الحمد للّه أنا بخير.

ما كلّ هذه الكدمات على وجهك؟ تبًّا لهؤلاء المجرمين، ماذا فعلوا بك؟ الحمد للّه الذي مكّنَنا منهم، قساة مجرمون.

- هذا ما فعلوه عندما حاولت الهروب مع دانة.

- ستكونين بخير يا أمّي، ستزول هذه الجروح والكدمات بعد أيّام لأرى وجهك الجميل منيرًا كما عرفته من قبل.

أين أبي؟ هل تعلمين عنه شيئًا؟

- والدك مات يا ولدي، لا تنسَهُ من دعائك.

فاضت عينا عمر بالدّموع واختنق صوته بغصّة تحكي شدة الألم وقسوة الخبر، فالسعادة التي وجدها في حضن أمه لن تكتمل باجتماعهما مع أبيه، والده الذي طالما أحبّه وتمتّع بقربه وجمال حديثه ولطيف مزاحه، وتذمّر بجهل من فقره وقلّة حيلته.
والده الذي طالما انتظر لقاءه ليعتذر منه ويكون له ابنًا صالحًا، ويعينه ليحسّن من حياته ومستوى معيشته.

والده الذي يستمدّ منه قوّته وعزّة نفسه وكرامته، والده الذي علّمه معنى الرّجولة والشّهامة والمروءة والكرم رغم عجزه عن تأمين بعض الرّفاهية له، لكنه اكتشف أنه قدّم له أكثر من الرّفاهية بكثير!
ضمّته أمه بحرارة وخففت عنه وقع الخبر، ربّت آدم ورامي على كتفه برفق وكأنهما يذكّرانه بأن لديه أخوة يشدّان من أزره ويكملان معه مشوار الحياة ولا يتركانه وحيدًا أبدًا بعد اليوم.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اغفر لأبي وارحمه يا رب العالمين، أبي حبيبي لن ألقاه بعد اليوم.

الحمد للّه الذي أكرمني بلقائك يا أمي، وأرجو أن نلقى أبي في الجنة جميعًا إن شاء اللّه.

- إن شاء اللّه يا عمر.
- ما أسعدني بلقائك بأمك يا عمر، لم أكن أتوقع أن نعيش مصادفة أعجب من هذه أبدًا!

إذًا أنت من كنت تهتمين بأختي يا خالة، جزاك اللّه خيرًا.

- نعم، وجدتها جالسة تبكي في أحد شوارع البلدة وقد جرحت رجلها نتيجة سقوطها المتكرر، كانت حرارتها مرتفعة جدًا وتعاني من البرد والزكام، فأخذتها معي حيث أعيش، هناك في غرفة مهجورة على سفح الجبل الشرقي، وبقيت تعاني من مرضها فترة طويلة لانعدام العلاج وقلّة الطّعام، وبقيت صامتة لا تتكلّم إلّا نادرًا وكأنها تعرّضت لصدمة نفسيّة شديدة، فكلما سألتها عن اسمها لا تذكر لي إلا شهباء، وبعد أن تعافت واطمأنت لي ذكرت اسمها واسم والديها وجدّها.

فسارعت معها لمنزلكم أعلى التلّ، وصلنا لبيتكم فوجدناه بلا سكّان، ووجدت ورقة معلّقة على الجدار كتب عليها أنّكم انتقلتم من المنزل، لكن لسوء الحظّ كان مكان العنوان الجديد على الورقة ممزّقًا ولم أتمكن من قراءته.

وهكذا بقيت معي إلى اليوم.

أحببتها كثيرًا فقد آنست وحدتي بعد فقد زوجي وغياب ابني، طفلة لطيفة ذكيّة.

وهل بقي عندكم عمر طوال هذه الفترة أيضًا؟

- نعم يا خالة، عمر أخونا وفرد من أسرتنا

خرج الجميع من الكهف وتوجّهوا نحو دانة وعائلتها

- جدّي وجدت أمّي يا جدّي
- هل أمّك من كانت تهتمّ بدانة؟
- نعم يا جدّي، كانت دانة تحت رعاية أمّي كما كنت في رعايتكم!

اللّه لطيف بعباده والحمد للّه.

- ما أسعدني بهذا يا عمر، قلب جدّك يطير فرحًا لأجلك يا بنيّ.

حمدًا للّه على سلامتك يا أم عمر، شكرًا لك على اهتمامك بدانة وصبرك في هذه المحنة، لن ننسى معروفك أبدًا.

- وأنا لن أنسى معروفكم في الاهتمام بولدي كذلك.
- لكن كيف وصل اللّصوص إلى دانة؟
- بينما كنا نسير معًا في بلدة اللوز لنوصل الفطائر إلى البائع أوقفنا وسيم وصاحبه ليسألا عن شابّ اسمه رامي.

فأخبرتهما دانة أنه أخوها، فطلبا منا أن نركب السيارة معهما ليبحثا معنا عن منزل دانة، وزعما أنّ أحدهم أخبرهما أن المنزل في هذه المنطقة.

فرحنا بهذا كثيرًا وصدقنا كلامهما وإذ بهما يذهبان بنا إلى الجبل، وبقيّة القصة تعرفونها.

- تبًا له، مخادع ماكر، ألا يعلم أن اللّه يراه؟!

هيا بنا إلى المنزل لنرتاح بعد هذه المشقّة والتعب.

وصل الجميع للبيت، جلس عمر بجانب أمّه سعيدًا مسرورًا.

تنفّس الجميع الصّعداء بعد خوضهم لهذه المغامرة الخطرة وانتهائها بأقلّ خسائر ممكنة، ورغم السّعادة التي تغمر نفوسهم لم يستطع آدم كتم أسئلة تجول خاطره منذ الأمس.

- أبي لدي سؤال من فضلك.
- تفضل يا آدم.
- ألا يستطيع اللّه أن يحمي المؤمنين من هذه الكوارث؟ أو يهلك الظّالمين الذين يظلمون الناس ويقتلونهم بنفسه، فنحن أضعف من تحّمل هذه المصائب، أليس اللّه هو القويّ المتين؟
- بلى يا آدم، اللّه قادر على كل ذلك.

لكن، كيف ستكون الدنيا دار اختبار دون أن نمر بالمصاعب والابتلاءات فيرى اللّه عملنا وصبرنا وجهدنا وصدق توكلنا عليه؟

وإن كان اللّه سيهلك كلّ ظالم بقدرته فقط فكيف ستكون الدّنيا دار اختبار لإيماننا؟ وكيف ستظهر معادن الناس على حقيقتها؟

فاللّه تعالى يختبرنا بوجود هؤلاء الظّالمين والمفسدين ليرى ما يفعل النّاس تجاههم، فيعلم من يقف ضدّهم ويدافع عن الحقّ، ومن سيركن إليهم ويعينهم في باطلهم.

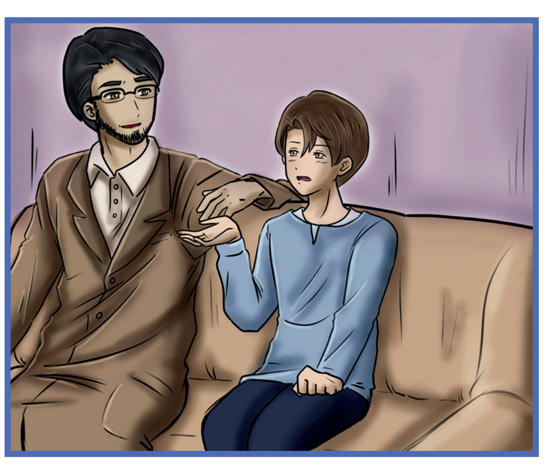
- لكنني قرأت في كتاب اللّه أن اللّه أهلك فرعون وجنده بالغرق عندما ضرب موسى البحر بعصاه.
- نعم يا بنيّ، هناك حالات يُهلك اللّه فيها الظّالمين، عندما يتّخذ المؤمنون كل الأسباب التي يملكونها لمقاومتهم، لكن يبقى ضعفهم الماديّ هو الغالب، فيلجؤون إلى اللّه ويتضرّعون له ليساعدهم وينصرهم على عدوهم، فحينها تدركهم رحمة اللّه وعنايته فيسخّر الدّنيا لنصرتهم.

تمامًا كما نصر اللّه موسى والذين آمنوا معه على فرعون كما ذكرتَ، بعد أن اتخذ موسى وقومه كل ما يملكون من أسباب النجاة والنصر مهما بدت بسيطة كضرب العصا على البحر! مع أن اللّه قادر على فلق البحر دون أن يضربه موسى بعصاه.

وكما أرسل اللّه الرّيح على الأحزاب التي تجمّعت حول المدينة المنورة، وذلك بعد أن أخذ الرّسول والمؤمنون بكلّ أسباب النّصر التي يملكونها من حفرٍ للخندق واستخدام الحيلة والخطط وإعداد العدّة، فنصرهم اللّه دون قتالٍ وأهلك عدوهم بالرّيح الشّديدة رغم تفوّقهم بالعدّة والعدد.

فاللّه تعالى مع المؤمنين، يحميهم ويحفظهم وينصرهم عندما يكونون أهلًا لذلك، إن شاء اللّه ذلك طبعًا.

ثم إن اللّه لا يكلّف نفساً إلا وسعها، فما كنت قادرًا على القيام به لتدفع الشّرّ وتتخلّص من الظّلم فافعله، وما كان أكبر من قدرتك فلا يحاسبك اللّه عليه.



- إذًا لا بد أن يهلك الظالمون في الدنيا وينتصر المظلومون، سواءً بأيدي المؤمنين أو بمعجزة من اللّه.
- هذا لا يحصل دائمًا في الحياة الدّنيا، إنما يرتبط ذلك بمشيئة اللّه لحكمة يعلمها.

فهناك ظالمون وجبّارون يموتون وهم بكامل قوّتهم قبل أن يلقوا جزاءهم وعقابهم في الدّنيا، فهؤلاء أخّر اللّه عذابهم ليوم القيامة، ولَعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

فالثواب والعقاب لا يشترط أن نراه في الدنيا، فنحن لسنا في دار عدل كما قلنا، فبعض الصحابة الكرام قد عُذّبوا في سبيل اللّه وماتوا قبل أن يروا أن الإسلام منتصرٌ وقبل أن يروا هلاك من ظلمهم، كوالدي عمار بن ياسر حين قُتلا شهيدين تحت التعذيب أوّل الإسلام، ليرفع اللّه مكانتهما في جنّة الفردوس فيذوقا من نعيم الجنّة الأبديّ ما ينسيهما بؤس الدنيا.

وبعض الصحابة انتقم اللّه لهم من ظالميهم وتمكّنوا منهم في الدنيا، ورأوا بأعينهم نصر قضيتهم، كبلال بن رباح رضي اللّه عنه حين تمكّن من قتل سيده المشرك الذي كان يقوم بتعذيبه عذابًا شديدًا لا يطاق،واسمه أميّة بن خلف، قتله بلال رضي اللّه عنه في غزوة بدر، وامتدّ به العمر ليرى الإسلام قد انتصر واشتدّت شوكته، وعاش هانئًا بذلك.
وسيلقى كلّ منهما عمله في الآخرة، ليذوق ابن أميّة العذاب في نار الجحيم خالدًا فيها، في حين يتمتع بلال في روضات الجنّات لإيمانه وصبره وثباته.

- الحمد للّه على نعمة الإسلام.

التفت أبو رامي لوالدة عمر قائلًا:

- لنعد الآن لحديثنا، سنرمّم منزلكم يا أمّ عمر، ولن تحتاجي للعمل بعد اليوم من أجل تأمين نفقتكم، فنحن سنتكفّل بذلك، فأنتم جزء من عائلتنا، يكفينا أن نتذوّق فطائرك اللّذيذة كلّ حين.

لن ننسى فضلك يا أمّ عمر في الاهتمام بابنتنا، ولن ننسى فضل خطط عمر الذكيّة لإنقاذ رامي ودانة من أزمات كادت تهلكنا وتهلكهم.
وسيعمل معنا عمر في المخبز أيضًا إلى أن تفتح المدرسة، حتى تبقى سلّة الخبز ممتلئة، أليس كذلك يا عمر؟

- بالطبع يا عمّ، فلولا سلّة الخبز لماتت والدتي ودانة وغيرهم من المشرّدين من الجوع.

كانت عيون أم عمر تلتمع فرحًا واستبشارًا، حمدت الله أن ردّ إليها ولدها وهيّأ لها أسباب صلاح حالها.

- ما أسعدني بتحقّق أمنياتك قريبًا يا عمر! عما قريب سيكون عندك ما تمنّيته قبل الفيضان، وستفتتح قناة الألعاب على يوتيوب وتجني مالًا وشهرة وسعادة!
- ربما سيكون حالي أفضل مادِّيًا في الأيّام القادمة، لكني تخلّيت عن تلك الأمنية بعد أن عرفت المعنى الحقيقيّ لحياتي، قرّرت أن تكون حياتي مليئة بالعمل الصّالح الذي يزيدني علمًا وعملًا وإنجازًا يصلح ديني ومجتمعي، حتى وإن افتتحت قناة يوتيوب فلن تكون للّعب والشّهرة، بل لهدف نبيل ينفعني وينفع النّاس.

فقدت أبي في هذه الكارثة وهذا آلمني جدًّا، لكني لا أنكر أن لها جانبًا آخر جميل، فهذه الكارثة قد أنارت بصيرتي.
علمني جدّي وعمّي معنى الحياة وسرّ السّعادة وسنن الكون، وعرفت أن الحياة أثمن من أن نهدرها باللّهث خلف الشّهرة والتّفاهات، ومهمّة الاستخلاف التي كرّمني الله بها تتطلّب منّي العمل لأكون أفضل، وليكون مجتمعي أفضل.

تذكّرت، أين ذهب جدّي يا عمّ؟ فهو لم يدخل المنزل معنا عندما وصلنا!

- لا أعلم، أخذ حقيبة المال من رامي وذهب مسرعًا، أبي عنده الكثير من الأمور الجيّدة ليفعلها دائمًا، ومهما غاب لا يأت إلا بالخير.

وبعد ساعة عاد الجدّ محفوظ للبيت مستبشرًا سعيدًا.

- دانة حبيبتي تعالي بسرعة.
- ماذا هناك يا جدي؟
- عندي لك مفاجأة ستفرحك.

خرجت دانة من البيت لتسمع صهيل شهباء بقلبها قبل أذنيها.

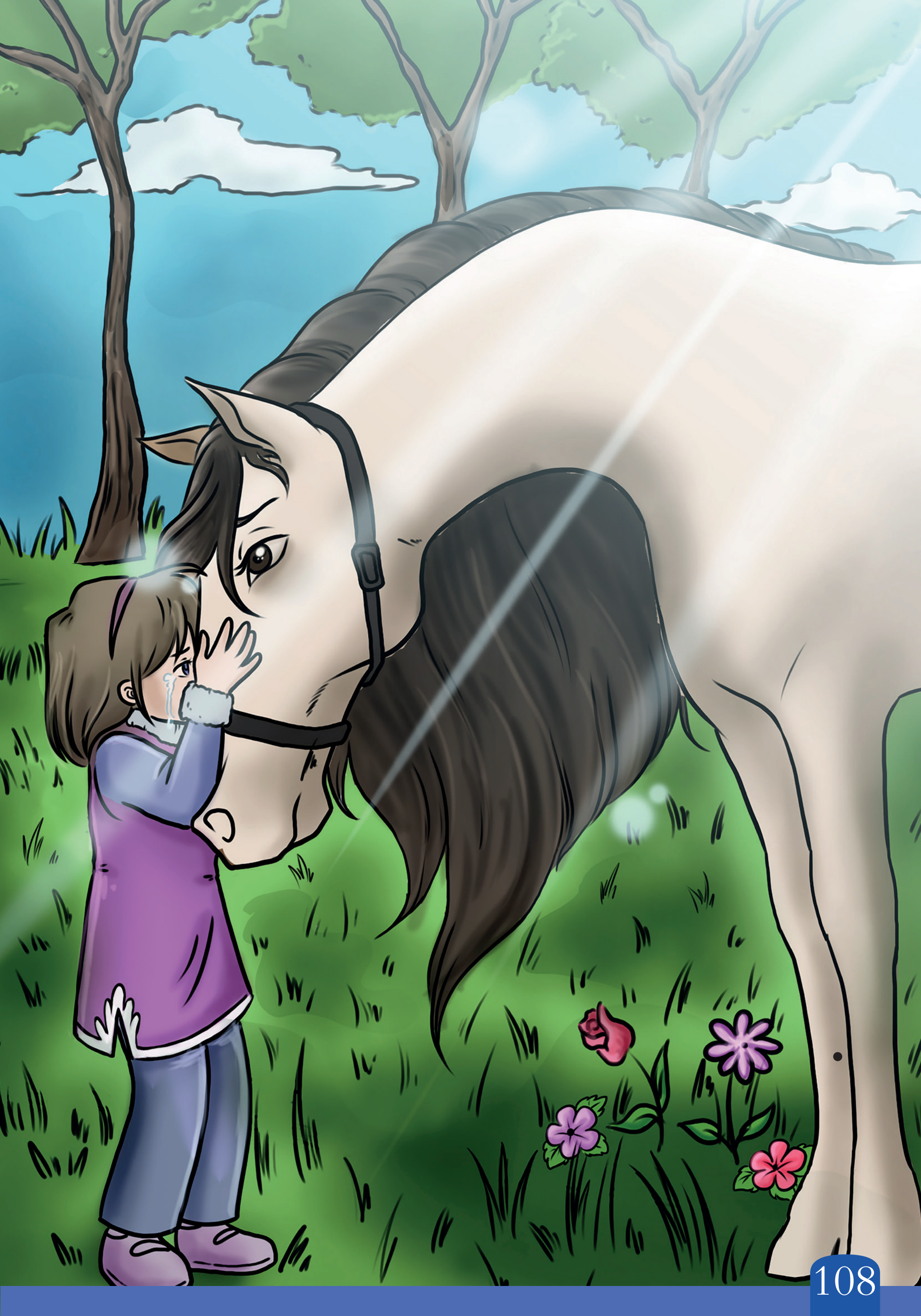
- شهباء!! هذا صوت شهباء!

تقدّمت شهباء بسرعة إلى دانة لتحني رقبتها وتضع رأسها بحنان بين يدي دانة وتهمهم بهدوء وكأنها تعبر لدانة عن حبها واشتياقها.

- شهباء حبيبتي، لقد عدتِ من جديد، كم اشتقت لك.

مسحت دانة برفقٍ على رقبة شهباء بيديها الصّغيرتين وقالت لها: لم أتخلّ عنك يا شهباء، خرجت للبحث عنك فمررت بتجربة قاسية جدًّا، كم كنت حزينة من دونك يا صديقتي الوفيّة، أرجوك سامحيني، سأحكي لك لاحقًا كلّ شيء بالتفصيل.

ركبت دانة ظهر شهباء، لتتراقص بها مهرتها بخفّة ورشاقة، وتلفّ وتدور وتصهل بصوت جميل، وكأنهما تؤديّان رقصة الفرح باللّقاء بعد فراق طويل.



بعد سنوات.

- انتهى حفل الافتتاح، ما رأيك يا أمي؟
- مركز رائع يا عمر! كم أنا فخورة بك يا ولدي!
- وأنت يا ولدي عمير؟ ما رأيك؟
- جميل جدًا يا أبي، أعجبتني كل هذه الزينة، وطعم الحلوى شيء من الخيال! استمعت بتناول أصناف عديدة منها وشربت الكثير من العصير.
- ألم يعجبك في المركز إلا الحلوى والعصير يا ولد! كم أنت ظريف مضحك يا عمير.

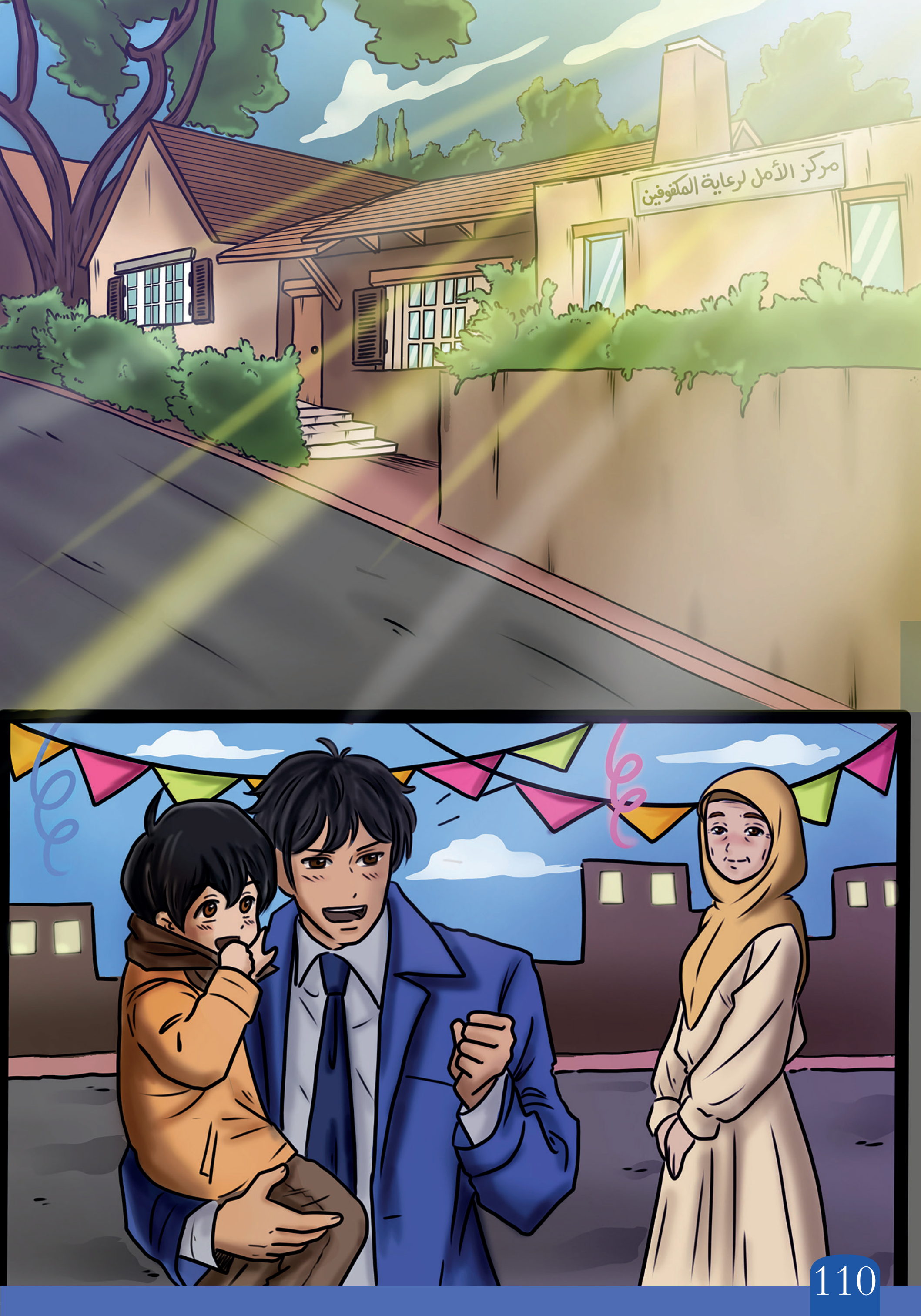
انظري يا أمي، سيأتي المكفوفون إلى هذا المركز الرائع من بلدتنا ومن البلدات المجاورة، سيتعلّمون القراءة والكتابة بلغة بريل مجّانًا، ويمارسون هوايات تناسبهم وتشعرهم بالثّقة والفرح والإنجاز، وأهمها طبعًا ركوب الخيل داخل المركز مع اتّخاذ كافة إجراءات السّلامة اللّازمة، وكل هذا بمساعدة دانة وإشرافها طبعًا.

هذا المركز هو سلّة الخبز خاصّتي، ولن أتركها فارغة أبدًا إن شاء اللّه.

وأنت يا عمير، ابدأ بالتّخطيط لنوع سلّتك وشكلها وهدفها من اليوم، وبادر بصنعها عندما تصبح قادرًا على ذلك.

فإن أتممتها.. فنصيحتي أن لا تتركها يومًا فارغة أبدًا..

النهاية..


مركز الأمل لرعاية المكفوفين

الفتى الشُّجاعُ عُمَر.

وُجد مرميًا على الصُّخور في حالٍ يُرثَى لها بعد الفيضان الكبير، واستعاد وعيه ليُفاجأ بوجوده في منزل أسرةٍ ثريَّةٍ تختلف تمامًا عن أسرته.

خاض تجارب مثيرةً وخطيرةً في رحلة بحثه عن والديه، وبذل الكثير من الجهد في إنقاذ رامي من خاطفيه والبحث عن دانة، الفتاة الكفيفة المفقودة.
كانت تلك الأحداث المتلاحقة تثير في نفس عمر التَّساؤلات لعجزه عن استيعابها، وربما كان بعضها قد خطر على بالك عزيزي القارئ عندما تقع في مشكلة:

- لماذا أنا موجودٌ في هذه الدّنيا؟
- لماذا نعيش تجارب مُرَة في حياتنا؟
- كنت أظنُّ أن المال سبب السّعادة في الدنيا، ولكن هل هذا صحيحٌ دائمًا؟
- كيف لي أن أكون سعيدًا في دنيا الابتلاءات؟ هل هذا مستحيل؟!
- دانة الصّغيرة، ما ذنبها لتذوق الألم والحرمان؟
- لماذا نُجرِّب حياة الفقر مع أنّنا تَصدَّقنا من قبل؟ أين أجر صدقتنا وعملنا الصّالح؟!
- كانت كارثةً كبيرةً، فهل هي ابتلاء رحمةٍ لرفع الدَّرجات أم عذاب من اللّه؟
- أليس اللّه على كل شيءٍ قديرٌ؟ فلماذا لا يُهلك الظّالمين قبل أن يؤذوا النّاس؟

أَعلَم أنَّك متشوّقٌ لتعرف الإجابة عن تلك الأسئلة، هيا فلنبدأ القراءة واكتشاف قصّة عمر، وبعد أن تنتهي من قراءتها لا تنسَ أن تملأ سلّة الخبز الخاصّة بك، لتكون رجل إصلاح وبناء ينشر الخير والسعادة أينما حلّ.
راسلنا لتحكي لنا عن خطّتك ونشاركك في إنجازك العظيم.



موقع السبيل
www.al-sabeel.net

